يوسف إدريس



بصراحة غير مطلقة

بصراحة غير مطلقة

•

بقلم

يوسف إدريس

•



مقدمة

مشكلة هذا الكتاب فى رأيى أن موضوعاته فيها رأى وموضوعات كهذه يضعها النقاد دائما وضع مواطن الدرجة الثانية فى دولة الادب والفن باعتبار أن هناك استحالة وجود الرأى المباشر مع الفن ، لا بد - فى رأيهم - لكى يكون الرأى فنيا أن يستحى ويتخفى تماما ولا بد أن يظهر فى العمل ، بطريقة غير مباشرة

والحقيقة انى ، فى بحر عشر سنوات طويلة وأنا أكتب مادة هذا الكتاب ، لم أكن ألقى الى هذه المشكلة بال ، باعتبار أنى أنا الاخر موقن انى أكتب للصحافة ، وهى جواز مرور أمثل لاى نوع من أنواع الكفاية وبالذات النوع القليل الفن • ولكنى وأنا أراجع الـ (تقريبا ٦٠٠) انطباع ولمسة ورأى لاختار منها المادة التى تليق بالقدس المسمى بالكتاب، وجدت أن المسألة فى حاجة الى تفكير من جديد • وللوهلة الاولى أحسست أننا نبخس (الرأى) وأهميته بظلم واضح ، وبدون تعريفات وتفاصحات كثيرة فان أدق مقياس للعمل الفنى أو الادبى هو أثره فى (المستقبل) أى القارىء أو القراء ، اذا كان العمل يبعث لدى القارىء أو المتفرج احساسا بالتفاؤل فهو عمل متفائل رغم كل

ما قد يقال عن نهاياته التعسة أو المتشائمة ، والعكس صحيح تماما ، اما اذا لم يتأثر القارىء بالعمل اطلاقا فهو قطعا لا يمت الى الفن بصلة مهما وجد فيه النقاد من رموز وتجريدات

من هنا نستطيع القول أن الفن ليس هو فقط الاشكال الفنية المتعارف عليها ، وانما هو كل ما يجعل (المستقبل) ينفعل انفعالا يشبه انفعاله بأى عمل فنى . آيات الطبيعة ، جلسة صادقة صريحة مع أصدقاء . (عمل) قام به أحدهم

وهذا هو المهم ... رأى لا تتحرك له عقولنا فقط وانما (ننفعل) له بعواطفنا ووجداناتنا أيضا . المشكلة اذن ليست مشكلة وجود الرأى فى العمل أو عدم وجوده ، المشكلة هى فى الرأى نفسه ، فى طريقة تقديمه بحيث يصل الى طبقات أعمق ، ويحرك الوجدان ، وبالمناسبة فانى لا أطيق الحديث عن (العقل) و (العواطف)كشيئين مختلفين ، ان امخاخنا لا تعمل هكذا أبدا ، لا تفصل ، انها كل متكامل ، كل ما فى الامر أن العقل ، يحدد خط وكيفية السير والعواطف تحدد الاتجاه ، بالضبط كالتكتيك والاستراتيجية . ولا يمكن أن يتحرك العقل الا بدافع من عاطفة ما ، ولا يمكن أن ينفعل الشخص بعاطفة الا والعقل مشترك بكل قواه فى الانفعال

ونعود للرأى . حقيقة هناك آراء تساق بطريقة ميكانيكية كمسائل الحساب والجبر ، ولكن بالتأكيد هناك آراء تبلغ من تحريكها لاعماق الانسان وعواطفه مبلغا ربما يعجز العمل الفنى عن الوصول اليه

لقد وجدت انى ، فى خضم العمل اليومى أو الاسبوعى فى الصحافة ، قد وصلت الى أشياء لا يمكن أن ينتهى الانسان منها بمجرد انتهائه من قراءة الجريدة ، أشياء

تكون فى مجموعها أحاسيس وأحلام وعثرات وقفزات شاب مغامر ، خلال اخصب عشر سنوات من عمر الشباب من الثلاثين الى الاربعين

أشياء ، أرجو أن لايبدو من الطريقة التى أتحدث بها عنها انى أعتز بها لانها عملى أنا

الحقيقة أن هدفى الوحيد من هذا الكتاب هو أن أضع أمام القراء سواء كانوا من جيلنا أم من أجيال لاحقة أو سابقة صورة حية لتفاعل انسان مثلى مع أحداث حياتنا العاصفة فى الفترة مابين ١٩٥٨ ، ١٩٦٨

وكان من المستحيل أن تتجسد صورة كهذه الا من خلال أعمال فيها رأى ، رأيى ، الذى قد يكون خاصـا ولكنى لا أملك سواه ، فالرأى الصادق ليس تفكيرة أو تفنينة تستطيع أن تلفقها من وحى الساعة ، رأيك الحقيقى شىء آخر ، ان الضمير ذلك الذى نجله ونقدسه ، رأى ، ضميرك هو رأيك ، أو على وجه الدقة على أساس آرائك يتحدد ضميرك ، أدق أجهزة العدالة فى نفسك

لو كنت أعرف أن مهمة اختيار عدد محدود من اليوميات والانطباعات والحكايات ، من بين ٦٠٠ عمل ، ستستغرق كل هذا الوقت والجهد والعذاب ، لفضلت ألف مرة أن أكتب كتابا جديدا ، فالجهد الاكبر استغرقته دقة الاختيار ، اذ على أساسه سيتحدد صدق الصورة النهائية من زيفها

وبرهبة أتمنى أن يجد القراء ما يعوض صبرهم ، ليس حتى على الكتاب كله وانما أولا على قراءة هذه المقدمة

القاهرة ـ اغسطس سنة ١٩٦٨

ى ٠ أ

صباح الخير

حقيقة بسيطة ولكنها غريبة جدا فى الوقت نفسه قد لا تخطر لك أبدا وأنت تبتسم لمن حولك حين تصحو من النوم وتقول : صباح الخير

هذه التحية كانت مشكلتى طوال جزء كبير من الليلة الماضية . أول ما استرعى انتباهى أن تحية الانجليز لبعضهم البعض فى الصباح هى : جود مورننج ٠ومعناها صباح طيب أو صباح خير . قلت لنفسى كيف تشابهت تحية الصباح عند الانجليز فى أقصى الشمال وعندالعرب؟ نفس الكلمات بنفس المعانى ٠ الصباح والخير ٠٠ كيف حدث هذا ؟ ومن منهم أخذ عن الآخر ؟

غير ان تلك الاسئلة أسلمتنى الى مشكلة أخرى ، اذ باستعراض تحية الصباح فى كل اللغات التى أعرفها وجدتها متشابهة تشابها مذهلا محيرا . فهى بالفرنسية بونجور وبالايطالية بونجورنو ، وبالالمانية جوتن مورجن، وهكذا ٠٠ وكلها معناها أيضا مثلما فى العربية : صباح الخير . أليست مشكلة تدعو للحيرة والتأمل ؟ !

الجنس البشرى موزع على رقعة الكرة الارضية كلها تفصله عن بعضه البعض محيطات وأنهار وسلاسل جبال

ومسافات مترية وزمنية شاسعة . وبسبب هذا الانفصال والتمزق نشأت عدة مجتمعات متفرقة ذات ألوان مختلفة متباينة وتركيبات نفسية وخلقية مغايرة . لكل مجتمع منها لغته الخاصة وتقاليده وعاداته وحضارته . كيف حدث اذن أن تلك المجتمعات المختلفة حين أرادت أن تبتكر طريقة لتحية بعضها البعض فى الصباح والمساء اختارت نفس الكلمات ونفس المعانى ؟

هل حدث هذا بالصدفة المحضة ؟

مستحيل ، فلو كان الامر قد حدث بالصدفة ، لوجد هذا التشابه بين مجتمعين أو ثلاثة ، ولكن التشابه فى تحية الصباح موجود لدى كل المجتمعات ، المتقدم منها والمتأخر ، الاسود والابيض والاحمر

هل يكون التشابه قد حدث نتيجة للنقل أو التسرب وتكون التحية مثلا قد تسربت من مصر القديمة الى اليونان الى أوربا ومن بلاد العرب الى بلاد الفرس ؟

مستحيل أيضا . فالتحية عند الفراعنة كانت صباح الخير أيضا باللغة الفرعونية وكذلك كانت عند قبائل الهنود الحمر فى أمريكا وبينهما مسافات بحرية ومائية لا يمكن اختراقها فى ذلك الوقت وكل مجتمع منهما قد نشأ مستقلا عن الاخر ، لا يعى حتى بوجود أي مجتمع على الكرة الارضية سواه

لماذا اذن لم يحدث اختلاف ، فينشأ الفراعنة يحيون بعضهم البعض بصباح الخير ، وينشأ الهنود الحمر يحيون بعضهم البعض بقولهم : حماك الله مثلا أو سمعا وطاعة أو أى شىء آخر غير تلك الكلمات نفسها ؟

الواقع انى لم أفكر فى الموضوع طويلا لاهتمامى بجغرافية الجنس البشرى أو بدراسة تاريخه ، ولكن الذى استرعى انتباهى حقيقة هو أن معنى تشابه التحية

عند كل الشعوب والمجتمعات ، ان طريقة انفعال الانسان أو الجنس البشرى واحـــدة مهما اختلفت الظـــروف والاحوال ، فالشمس حين تطلع على كل هذه المجتمعـــات المتفرقة المتباينة المتأخرة والمتقدمة تولد فيهم جميعا نفس الشعور وتدفع كلا منهم أن يلتفت للآخر ويقول : صباح الخير ، يقولها بالعربية والانجليـــزية والسنسكريتيـــة واللهجات المحلية فى ايسلندا وافريقيا واستراليا ولكنـــه يترجم بها احساسا واحدا شعر به، احساسه باليوم الجديد

وقد يقول قائل وماذا في هذا ؟ أليس الجنس البشرى متشابها في ملامحه فلكل انسان أنف وفم وعينان ؟ وهذا صحيح ، ولكن التشابه هنـــا ليس تشابهـــا فى الملامـــح الخارجية ولكنه تشابه في الملامح الداخلية ، تشابه فى التصرف ، والتصرف عملية تفكيرية يخيل لكل منا أنهـــا تختلف من شخص الى آخر ومن مجتمع الى آخر . وقـــد يكون هناك اختلاف ولكن التشابه الذى أعنيه هو تشابه ما وراء هذه المظاهر الخارجية المختلفة ، تشـــابه الاعماق تشابها أرسخ اقداما من كل هذه الاختلافات القشرية فى اللون واللغة والمأكل والملبس . تشابها عميقا قد يبـــدو أحيانا في شكل تصرفات بسيطة جدا تمر أمام اعيننا دون أن نلحظها ، مثل تلك التحية التى تواضعت المجتمعـــات البشرية على استعمالها من تلقاء نفسها وبوحى من فطرتها الانسانية فقط ، تحية الصباح ، تلك التى نتمنى فيهـــا لبعضنا البعض من بلاد الاسكيمو فى الشمال الى جوهانسبرج فى الجنوب صباحا طيبا خيرا نبدأ به يومنا الجديد

تأملوا معى تلك الحقيقة فربما أدى بنا التأمل الى كشف حقائق أخرى لم ندرسها فى الكتب ، عن الانسان ، ذلك المجهول

الشيء الآخر

تعودت أن اذهب الى عملى كل يوم عن طريق شارع القصر العينى واعود من نفس الطريق اذ هو أقصر الطرق التى تصل بين بيتى ومكان عملى . وأول الامر كان المشى فى شارع القصر العينى يبهجنى ، اذ كل ما كنت أراه فيه كان جديدا على ، ولكن طول المدة وكثرة التعود أفقدانى لذة الاحساس بالشارع ومن فيه حتى أصبحت أقطعه بلا وعى وبدون أن أفكر الى أين أو كيف أسير ، يكفى أن أضع نفسى فى أول الشارع لاجدنى أوتوماتيكيا قد وصلت الى بيتى بطريقة تلقائية لا دخل للارادة فيها ، وكنت أستسهل تلك الطريقة اللا ارادية ولا أفكر أبدا فى تغييرها تماما كما كنت قد أصبحت أستسهل حياتى ولا أفكر فى تغييرها .

وحياتى حين توظفت كان لها أول الامر طعم جديد ، كان المكتب الذى اجلس عليه أحس انه حقيقة مكتب لامع وانيق . واحس حين أعمل عليه اننى حقيقة أعمل وانتج ، ولكن لا'يام ، اذ العادة لم تلبث أن أفقدتنى الاحساس بالمكتب والاحساس بالعمل وحتى الاحساس ببيتى ٠البيت والمكتب ودقات المنبه التى توقظنى ونظرة زوجتى حين أعود وحين أغيب والطريقة التى أصفف بها شعرى وفنجان الشاى الذى أشربه فى الفراش بعد غفوة الظهر؛ هذه كلها كان لها ، مثلما كان لشارع القصر العينى طعم وجدة ، غير أننى فقدت الاحساس بطعمها وبجدتها ؛ واخيرا بها نفسها ، واصبحت لا أزاول حياتى بقدر

ما أتحرك أوتوماتيكيا داخلهـــا وكأنها دائرة من أسمنت وأبواب وأقارب ومكاتب والتزامات أدور فيها مرة كل أربع وعشرين ساعة ، أدور كالسجين المحبوس ، بل حتى احساسي بأني مسجون ــ الاحساس الذى كان يولد فى نوعا من الثورة والتمرد والرغبة فى التغيير ــ حتى هذا الاحساس فقدته ولم أعد أثور

وامس ، فعلت شيئا تافها جدا لم أكن أتصور أن يكون له ذلك الاثر . وانا خارج من العمل خطر لى خاطر ، واحد من تلك الخواطر التي تخطر لنا ونلقيها من وراء ظهورنا ولا نحفل بها . الفرق اني تحمست للخاطر ونفذته . كان لدى وقت ، فقلت لماذا لا أغير شارع القصر العينى وأحاول أن أعود الى البيت مرة عن طريق شارع آخر . وأخذت شارع الفلكى . ومن أول لحظة وضعت قدمى فيه بدأت حواسي تتنبه ، وبدأت آخذ بالى من الشارع ، أمشي حقيقة ولا أتوقف ولكنى لا أترك شيئا يمر من أمامى أو أمر من أمامه دون أن أراه أو ألحظه وأفكر فيه

ويا لعجب ما رأيت .. أشياء جديدة تماما على عينى . الشارع مختلف عن شارع القصر العينى ، والبيوت مختلفة ، بناؤها مختلف وروحها مختلفة وكأنما لكل شارع طعم خاص وروح خاصة . والبلكونات جديدها مختلف ، وحتى الملابس المنشورة على حبال الغسيل الوانها بدت جديدة لعينى كذلك طريقة نشرها وتفصيلها . وكل شيء كنت أحس به . الاصوات ، طريقة نداء الباعة ، أشكال وأعمار وما يرتديه صبيان الدكاكين وشلل الطلبة التى تحتل النواصى ، واللافتات وطريقة كتابتها ، وما عليها من أسماء أطباء ومحاسبين وشركات . أسماء مختلفة جديدة لها وقع غريب على العين وطعم جديد على الذهن ، وكل اسم جديد ، ودكان جـديد ، وشخص جديد يثير فى نفسى

عشرات الخواطر الجديدة . حتى عساكر المرور الذين من كثرة ما اعتدتهم فى شارع القصر العينى كانوا قد أصبحوا لدى مجرد اشارات آدمية بيضاء وسوداء تنظم حركة السيارات وجدتهم فى شارع الفلكى رجالا حقيقيين لهم شوارب ووجوه ولكل منهم شخصية خاصة مستقلة وطريقة خاصة فى اعطاء الاشارات

مشيت فى شارع الفلكى ، وصحيح انى تعبت قليلا لان المسافة أطول ولكنى عشت بكيانى كله فى تلك الدقائق التى قطعته فيها وكأنى طفل يتفرج على دنيا جديدة لم تخطر له على بال

وحين عدت الى البيت ، بدأت أفكر فيه وفى مشاكله بطريقة جديدة ، وبروح جديدة ، وبدأت أحس انى كائن آخر غير الذى غادره فى الصباح .

وكم من المشاريع نبتت فى رأسى ، وكم من الاحلام التى كان يخيل الى أنها ماتت من نفسى وجدتها تنتفض وتملأ على خيالى وأحس انها قريبة منى لا تكاد تحتمل الا أن أمد يدى لأقطفها . عاودنى الامل . أحسست وكأنى كنت فعلا ميتا وعدت الى الحياة بطريقة ما وكأن الموت هو أن نسجن أنفسنا داخل حياة متشابهة واحدة ، وكأننا نموت حين نكف عن ادخال التجديد فى حياتنا ، الموت هو أن ندور فى دائرة واحدة مهما كانت تلك الدائرة .. حقيقة أحسست وكأنى تناولت لتوى جرعة حياة ضخمة أصبحت بعدها أكثر قوة واكثر حرية وتفاؤلا وانسانية وأقوى ارادة . يوكل هذا لانى فقط عدت ذات مرة الى بيتى من شارع آخر غير الذى تعودته ... !

ترى ماذا يحدث لو عدت كل يوم الى بيتى من شارع جديد ، ولو قرأت كل يوم كتابا جديدا وتعرفت الى شخص جديد وابتكرت طعاما جديدا ومارست تجربة لم أمارسها أبدا ؟

لماذا رغم قسوتها
نحب الحياة ؟!

لماذا نستيقظ من النوم ملهوفين ونجـــرى الى العمل ، ومن العمل نجرى الى البيت ، ونتحمل الرؤساء ،والخضوع للمطالب والروتين ؟

لماذا نتعب أنفسنا ونعيش ، ونتمسك بحياتنا الى آخر رمق رغم كل ما قد يكون فيها من ظلم وألم ؟

بالاختصار ، لماذا الحياة أصلا ؟ ‥ لماذا يكلف الشجر نفسه عناء النمو وتكوين الثمـــار ؟ ‥ لماذا تدافع أحط الكائنات عن بقائها بكل شراهة وشراســة ‥ لماذا يتعب الطير نفسه فى وضع البيض ورعاية الاجنة وملء الســماء أسرابا وأفرادا ؟

هذه الاسئلة خطرت لى أثناء كتـابة موقف من مواقف قصة أخيرة ، وردت فيه على لسان البطل ، ولكنى لم ألبث أن وجدت نفسى أولى من البطل بمناقشــتها ، وجــدتنى أخرج من القصة وينتقـــل التساؤل الى لســـانى أنا ‥ حقيقة ما دامت الحياة آخرتها الموت ، مادام لها نهايةمحتمة فلماذا البداية أصلا ‥ وما معنى البداية والحيـــاة والنهاية ؟ ‥ لا أعتقد أنى ، أو بطل القصة ، وحدنا فى ذلك التساؤل ‥ يخيل لى أن كلا منا لابد جاء عليه وقت أو سيجىء عليه وقت يجد فيه أسئلة كهذه تملك عليه عقله

وتفكيره ، ويجد نفسه في النهاية يتساءل مثلنا : لماذا أحيا ؟

الفلاسفة من قديم الزمان طرحوا السـؤال وحاولوا الاجابة عليه ، بعضهم قال : ان دافعنا الاول للحيـاة هو التكاثر والتناسـل ، وبعضهم قال : بل هي غريزة حب البقاء الكامنة في كل كائن حي ، وأكثر من اجابة تطـوع بها أكثر من فيلسوف ، ولا يزال السـؤال بغـير جـواب شاف ·· وجدت أني أنا الآخر مطالب بالبحث لنفسي عن جواب ·· فبرغم كل ما تقرؤه لارسطو وأفلاطون وكانت وبرجسون ودوهرنيج وراسل وانجلز ، لابد تجد نفسك في أحيان مطالبا لكي تؤمن أن تبحث بعقلك أنت عن الحقيقة

ولقد حاولت أن أبدأ من البداية ·· فأقول لنفسي : ان الحياة ، ومنها الحياة الانسـانية ، نوع من الحـركة ، وقوانين الحركة تنص على أن من خواص المادة أن تحـافظ على حالتها الكائنة عليهـا ·· فاذا كانت تتحـرك فمن خواصها أن تظل محافظة على حركتها تلك ، واذا كانت ساكنة فمن خواصها أن تظل محافظة على هذا السكون ، الى أن تتدخل قوة خارجة عنها تغير من حركتها أو سكونها

ممكن أن ننقل الغرض خطوة أخرى ونقول : اذا كان هذا هو القانون ، فلابد أن كل مادة حية من خواصهـا أن تظل تحتفظ بحالتها الحيوية حتى تتدخل قوى ترغمها على التخلي عن حالتها تلك وتدخلها في حالة أخرى ·· بمعنى أدق : نحن لسنا أحيـاء لاننا نحب البقـاء ، العكس هو الصحيح نحن نحب البقاء لاننا أحياء ، ولا يمكن أن نجـد كائنا حيا أو مادة حية لا تحب البقاء حية ، فهي رغمـا عنها ــ بحكم خاصيتها ــ لابد أن تكون كذلك ·· وأيضـا لن تجد مادة غير حية الا وهي في حالة تمسك واحتفـاظ بانعدام حياتها ، تقاوم أن تدب اليها الحياة مثلما تقـاوم

الحياة أن يدب السكون اليها .. كل شيء في هذا الكون يعمل على أن يظل على حالته ، فاذا تغير لابد أن يكون التغيير رغما عنه لا بارادته

***

الحقيقة الثانية ..

المادة في كوننا تأخذ حركتها أشكالا عدة ، ملايين عديدة من الاشكال ، كل شكل منها يختلف عن الآخر ، فالعلم قد أثبت أن لا شيء في الكون في حالة سكون تام ، ذرات قطعة الرصاص في حالة حركة دائمة مثلها مثل ذرات خلايا الانسان ، كل ما في الامر أن ذرات الرصاص تتحرك بطريقة أبسط وأبطأ ، بينما ذرات الخلايا تتحرك أسرع وفي مدارات أكثر تعقيدا

والخلاف بين الرصاص والبخار والعقل هو فقط خلاف في السرعة ودرجة التعقيد ، ولان المادة في حركتها يمكن أن تأخذ عددا لا نهاية له من السرعات ودرجة التعقيد ، أي بتعبير آخر يمكن أن تأخذ عددا لا نهاية له من أشكال الحركة .. لهذا نجد أن كوننا يحفل بعدد لا نهاية له من أشكال المادة ، وجود كل شكل منها على حدة هو في اختلافه عن الاشكال الاخرى .. الاختلاف في الشكل يحتم اختلافا في المضمون أيضا ، فحركة ذرات الرصاص باختلافها عن حركة ذرات الخلية الحية تجعل من الرصاص رصاصا ومن الخلية كتلة حية ، الاختلاف في الحركة هنا شكل ومضمون في الوقت نفسه ، واسم وصفه ، الرصاص رصاص لانه يختلف عن الحديد والإنسان ، فاذا فقد اختلافه عن الحديد والانسان فقد رصاصيته ، والخلية الحية حية لانها تختلف عن الرصاص والحديد ، بل حتى عن مكونات نفس الخلية اذا ماتت ، فاذا فقدت الخلية الحية اختلافها فقدت حياتها

الحقيقة الثانية اذن ، حسب قوانين الحركة ، كل شكل من أشكال الوجود يحاول المحافظة على الحالة التى هو عليها بطريقة سلبية ، بمجرد البقاء فى شكله المختلف فقط ، ولكنه يحافظ على اختلافه بطريقة ايجابية ، بمحاولة فرض شكل حركته الخاص على أشكال الحركة الاخرى .. النار مثلا تحاول أن تحيل كل شيء الى نار ، والثلج يبرد ما حوله والحيوانات تأكل النباتات لتحولها الى نسيج حيوانى ، وهكذا

باستطاعتنا اذن أن نتصور الوجود على أنه مادة دائبة الحركة ، تأخذ من حركتها أشكالا لا حصر لها ، أشكالا متدرجة فى درجة سرعتها ودرجة تعقيدها ، كل شكل منها يحاول ابتلاع الاشكال الاخرى ، وفرض نوع سرعته ودرجة تعقيدها عليها

***

الحقيقة الثالثة :

بدراسة تاريخ حركة المادة ، نجد أن الحركة فى الكون تجنح أكثر وأكثر الى أن تتعقد .. والدليل على هذا أن كتلة الشمس مكونة من جزيئات وذرات ، وحتى من الكترونات طليقة ، بينما فى الكرة الارضية تجد هذه الاشكال قد تداخلت وارتبطت وتعقدت أكثر وأكثر ، ونتج عنها الماء والتراب والنبات والحيوان والانسان

فى عملية الصراع من أجل بقاء كل شكل من أشكال الحركة على حاله ، لمن النصر ؟ .. المشاهد أن أشكال الحركة المعقدة هى التى تبتلع الاشكال السفلى الابسط وترفعها الى درجتها من التعقيد .. ولقد ظلت أشكال الحركة المعقدة تزداد تعقيدا حتى وجدت الحياة ، وظلت

أشكال الحركة الحية الدنيا تتعقد حتى وصلت الى مراحل النبات الكامل والحيوان والانسان ، والعقل .. العقل هنا هو أرقى اشكال الحركة وأكثرها تعقيدا .. ليس هذا فقط ، بل انه شكل الحركة الذي يستطيع دونا عن بقية أشكالها الاخرى أن يتحرك حركة من تلقاء نفسه لا تخضع لقوانين الحركة ..

وبمعنى آخر .. مادة السكون ظلت فى حالة حركة تلقائية وصراع بين أشكالها ، حتى ظهر العقل الذى بدأ يحرك ويتصرف فى مادة السكون وأشكالها تبعا لارادته الخاصة وقانونه الخاص ، ولكنها ارادة محدودة أيضا وخاضعة لقوانين الحركة العامة السالفة .. فالانسان يستخدم عقله لابتلاع كافة أشكال الوجود الاخرى ولاحالتها الى انسان ، أو تأنيسها على الاقل .. هو لا يمكن أن يوقف قوانين حركة المادة أو يلغيها لانه هو نفسه مجرد شكل راق من أشكال حركة المادة .. كل ما فى الامر أنه مرحلة نتجت عن تعقيد حركة المادة ، وبحكم خاصيتها تجنح الى تعقيد حركة المادة أكثر وأكثر

ولهذا ، فكما كان الجليد فى العصور الغابرة يحاول أن يثلج الارض وما عليها فكذلك الانسان .. ذلك الذى كان فى مبدأ أمره مجرد أفراد متناثرين على سطح الارض يحيون فى كهوف ، ها هو الان يملأ وجه الارض ، تكاثر جنسه حتى أصبح ثلاثة آلاف مليون ، ومن الاحجار صنع بيوتا ، ومن الحديد صنع آلات تتحرك .. استأنس الحيوانات واستغل النبات ، واستأنس كل ما على ظهر الارض من مواد وطاقات ليحيلها الى انسان ، أو أقرب ما يكون الى الانسان

والنتيجة ؟ ..

اننا لا نحيا اذن استجابة لنداء حب الحياة ، ولكننا نحيا برغمنا ، بحكم قانون شكلنا الحى وحركتنا ، بحكم أننا مختلفون عن بقية أشكال الوجود اختلافا لا نملك معه الا أن نستمر نختلف وندافع عن اختلافنا .. ليس فقط بمجرد تمسكنا السلبى ببقائنا أحياء ولكن بالتمسك الايجابى ، بالدخول فى صراع مستمر مع غيرنا من أشكال الحياة واللاحياة ، والانتصار عليها ورفعها الى مستوى حركتنا الانسانية ، ولان قانون الوجود الاساسى أن الشىء الذى لا يغير يتغير ، وأننا ما لم نغير نحن من أشكالها ونستأنسها .. فأشكال الوجود الاخرى حتما سوف تغيرنا وتخضعنا لقانون حركتها ، تلغى وجودنا المختلف ، تقتلنا ..

لهذا ، فمجرد أن نبقى أحياء هو فى حد ذاته موت ، لانه الغاء لخاصيتنا كأحياء ، اذ خاصية الحى أن يغير كل ما هو غير حى الى حى والا حوله غير الحى الى جماد مثله .. ونحن نفعل هذا برغمنا وبارادتنا ..

دافعنا للحياة اذن ، ليس هو الخوف من الموت ، أو الرغبة فى التناسل ، أو المحافظة على النوع .. دافعنا أننا فعلا أحياء بغير ارادتنا ، حياة من تلقاء نفسها دفعتنا لان تنشأ لنا ارادة ، نستخدمها أيضا لكي نتحرك حركة الانسان الراقية المعقدة ، وأن نجعل غيرنا من الكائنات والمركبات ، وحتى الاكوان ، يتحرك مثلها

وصحيح أن معظم الناس لا يحيون هكذا .. بعضهم يستخدم هذه الارادة التى تفرد بها فى خدمة نفسه فقط ، واحاطتها بما يؤمن وجودها على سطح الارض ، ومع أن فى هذا أيضا تحقيقا لبعض ارادة الحياة الكبرى .. الا أنه تحقيق لها على أضيق وأحط نطاق .. أما حركة الجنس

البشرى ككل ، فهى تمضى تنتصر وتكسب وتنجح ..
لا فى احالة كل ما هو غير حى الى حى ، ولكن أيضا فى احالة أشكال الحياة الانسانية اسما الى انسانية حقيقية، والصراع بين ما هو خير فى الانسان وما هو شر ، صراع ليس أبديا ـ كما يعتقد البعض ـ أنه مرحلة من مراحل تانيس الحركة الانسانية داخل المجتمع الانسانى ، تمهيدا للتفرز كلية لتأنيس كل ما ليس انسانا

الاجابة على السؤال : لماذا نحب الحياة رغم قسوتها ، ونحتمل شظفها ، الاجابة أننا نفعل هذا لان الحياة لا تكون الا بالانتصار على قسوتها ، وتحمل صعاب الحياة ليس ضريبة مفروضة على الانسان .. ولكن صعاب الحياة هى الحياة ، وأن نحيا معناه القدرة على التغلب عليها ، فالحياة ليست نزهة أو وليمة .. انها معركة من لايحاربها ميت ، وان ظلت تحمله الاقدام .. !

الإنسان الآخر
الذى يسكننى

أمضيت اليوم بطوله فى البيت ، أحيا كالناس الطيبين الصالحين ، وفى المساء ذهبت مع زوجتى فى زيارة ، وتعشينا فى البلد ، وحضرنا حفلة ، ثم عدنا فى منتصف الليل ، زوجتى سعيدة تتساءل عن اليهودى الذى لابد قد مات وجعلنى أقضى يوما كاملا معها ، وابننا سعيد وان كان يعبر عن سعادته بطريقته الخاصة،بالصراخ ورفضه خدعة البزازة . وكل شىء فى البيت هادىء وسعيد ومرتب ، والقاهرة ، والليل ، والانوار وكل مافى الكون يؤوب مسترخيا راضيا الى السكون الذى طال انتظاره .. اما أنا فقد كنت أكاد انفجر ، لا من الغيظ ، ولكن من هاتين العينين الدخيلتين اللتين ظلتا تراقبانى فى سخرية وأنا أقوم بدورى طيلة اليوم ، بطريقة جعلتنى أخجل من نفسى ولا أستطيع أن أذوق طعما لكل ما رأيت وفعلت ، عينان لا أعرف أين اذهب منهما ، ومنه ، من هذا الانسان الآخر المخيف الذى يحيا داخلى ويحيل صدرى الى نار دائمة موقدة لاتهدأ ولا تخمد .. الانسان الجاد الذى لا يبتسم ولا يعجبه العجب .. والذى يرتدى على الدوام ملابس الميدان ولا يستريح أبدا وليس فى حربه المتصلة هدنة ...

الانسان الدائم القلق ، الدائم التفكير ، الخطير المشروعات الباتر الارادة ، العنيد الذى يضعنى كل لحظة أمام أوامر لاقبل لى بها .. اذهب حالا وتطوع فى جيش التحرير الجزائرى .. اكتب قصة عن السجن .. امتنع عن هذه النظرات الحنونة الخاصة التى تسترقها لابنك .. اعتبره مجرد واحد من مئات الملايين من أطفال العالم أنت أبوهم جميعا ، اقطع كل صلاتك الخاصة بالحياة .. لا تستمتع بهذا الطعام .. فغيرك جائع .. أنت مسئول عن الجوعى فى العالم . انت مسئول عن منكوبى أغادير . . مسئول عن الحرية فى بلدك وعنها فى العالم .. انت لم تخلق لنفسك فلا ترح نفسك ، انت خلقت لغيرك فافن فى غيرك ... وعش كيفما اتفق ، فالمهم أن تعمل ، أعمالا تجلب السعادة لكل الناس ، وتبدأ من الآن .. قم وانهض ..

انسان يسكنني ويجعلنى أنام وأنا واقف وأفكر وأنا واقف واذا وقفت أريد أن أطير .. انسان ألهث ولا أعجبه وأكتب ولا اعجبه .. وأجد نفسى مضغوطا بشدة بينه وبين المجتمع الصغير الذى أحيا فيه بل أجده يدفعنى جانبا أحيانا ويتصرف هو فلا يحفل باحساس صديق أو قد يسىء الى عزيز ، وأبادر لأصلح ، وأتعذب لفشلى فى الاصلاح ، وأتمزق لاحساسى انى لا أستطيع أن أكون عاديا كما يريدنى الناس وغير عادى كما يريدنى هو ..

طوال اليوم الذى أمضيته « سعيدا » كالازواج الصالحين ، أمضيته وأنا أكتم قطع الفحم المتقدة فى صدرى ، قضيته وأنا « أتحمل » السعادة .. وأدفع ثمنها الفادح .. هذا الاحساس الممض القاتل انى أتواكل عن مهمة عظمى ، انى أهملت ، انى مقصر ، احساس التلميذ الذى « يزوغ » عن المذاكرة أيام الامتحان ..ولكن

التلامذة يعرفون امتحانهم ويؤدونه ، أما انا فلا اعرف امتحاني ولا مهمتي ...

ومصيبتي انى لست ضيقا بهذا الانسان وكل مرادى أن أرضيه ، وهو جبار لا يرضى أبدا ولا يهدأ ، كالنار التى أقدم لها نفسي لأرضيها فتزداد ضراما واشتعالا وربما لن ترضى وتخمد النار الا بانتهائي وموتى ..

أتريدون أن تعرفوا راى هذا الانسان الاخر فيما اكتبه الآن .. انه يتهمنى بالسخافة والانانية ، وبتهمة أكبر ، انى أشرك قراء لديهم مشاكلهم الكثيرة فى مشكلة تخصنى انا وحدي ..

أتريدون أن تعرفوا رأيى .. انه نفس رأيه .. فاغفروا لى ما كتبته .. انى متأكد انكم ستفعلون ، ولكن الكارثة الكبرى أنه هو لن يصفح أو يغفر أو ينسى .. سيظل يؤرقنى بتأنيبه اياما ، وربما سنين ، انه لا يزال الى الآن يؤنبنى على أخطاء ارتكبتها وانا طفل !!

وزن الحرية

لم أكن أعرف ان للحرية وزنا ، ليس وزنا معنويا ولكنه وزن مادى ممكن قياسه وحسابه . كنت أقرأ فى كتاب ضخم للعالم الروسى الشهير بافلوف ، واذا بى أجد هذه الفقرة الصغيرة البالغة الاهمية ، انقلها هنا كما قرأتها :

« مرة خلال سلسلة التجارب التى كنت أقوم بها على فسيولوجية الجهاز الهضمى حيرنى سلوك الكلب الذى كنت أقوم باجراء التجارب عليه . كنت أنا ومساعدى قد وضعناه فى جهاز الاطعام وربطنا اطرافه الاربعة بطريقة تحد من حركته فقط ولكنها لا تقيده . ولم يقاوم الكلب ونحن نربطه ولا أظهر أى علامة من علامات الضيق بالوضع ولم نفعل شيئا آخر اكثر من تقديم وجبات الطعام له مرة كل بضع دقائق . وفى مبدأ الامر ظل الكلب هادئا يأكل برغبة وافرازاته طبيعية ، ولكنه بمضى الوقت بدأت سلسلة غريبة من الاعراض تظهر عليه فبدأ ينبح وينفعل لأقل شيء ويثور ويخربش قاعدة الحامل ويعض قوائمه. وصحب هذا المجهود العضلى المستمر ضيق فى التنفس وخفقان فى القلب وافراز غزير من الفدد اللعابية. واستمر هذا أسابيع كثيرة حتى أصيب الكلب بالسقم وأصبح غير صالح لاجراء تجاربنا عليه . ومع اننا كنا نعتقد اننا على معرفة وثيقة بطبائع الكلاب من كثرة ما اجرينا عليها من تجارب ، الا أن سلوك هذا الحيوان بتلك الطريقة حيرنا

تماما ولم نجد له تفسيرا ، فلم يكن هناك أى سبب يفسر تصرف الحيوان بتلك الطريقة الشاذة

وأخيرا خطر لنا ان السبب قد يكون هو السبب البسيط الذى كان من الممكن الا نفطن اليه لفرط بساطته. اى يكون السبب هو الاربطة التى تحد من حركة الحيوان وبالتالى من حريته . وسميناهذه الظاهرة انعكاس الحرية (Freedom Reflex) التى تدل على وجود غريزة الحرية (Freedom Instinct) ومن الغريب اننا وجدنا كبار العلماء الذين كتبوا عن الغرائز لم يشيروا الى غريزة الحرية هذه من قريب أو بعيد ، فالعلامة جيمس مثلا لا يشير اليها ضمن الانعكاسات الخاصة للانسان (أى ضمن غرائزه)

وبموالاة الدراسة فى هذا الاتجاه أمكننا أن ندرس بعض آثار غريزة الحرية هذه ونعرف أنها من الدقة بحيث اذا وضعنا أى شىء ولو كان بالغ التفاهة فى طريق الحيوان (حتى ولو لم تقيد أطرافه) لانعكس هذا على حياةالحيوان نفسه ولأثر بشكل خطير على وظائفه الحيوية وبقية غرائزه . واعتقد اننا كلنا نعلم ان هذا الانعكاس الخاص أو تلك الغريزة تبلغ عند بعض الحيوانات حد أنه لو قيدت حرية الحيوان بأى طريقة فانه يمتنع فورا عن الطعام ولا يلبث أن يذوى ويموت »

الحرية اذن ليست مجرد شعار أو اعتقاد ، انها حقيقة علمية ، غريزة مثل التزاوج والبقاء . الكائن الحى حى لانه يملك حرية حركته ، وأى قيد على حريته أو حركته سوف يناضل ضده ويكافح ويضرب بالرصاص حتى يزول أو يهلك دونه . حقيقة علمية ما أجدر أن يتأملها أعداء الحرية واعداء حركة الشعوب ، وما أجدرنا أن نتأملها نحن أيضا ، نحن الذين ننادى بالحرية ونؤمن بها

الحـــيـــاة

اول امس :

لعلكم قرأتم خبر الحادث الذى وقع على الطريق الزراعى بين القاهرة والاسكندرية والذى مات فيه أربعة وجرح أربعة عشر • قدر لى أنا أن أرى الحـــادث رؤى العين ، بالصدفة كنا قادمين بالعربة على نفس الطـــريق ، وفى منتصف المسافة بين طنطا وكفر الدوار وجدنا جمعا هائلا من الفلاحين يحيط بعربتين مدشدشتين مقلوبتين • وما كدنا نتوقف لنرى ما هنالك حتى تطوع فلاح شاب من تلقاء نفسه وقال : اربعة ماتوا والباقيين اتعوروا

وهبطت تدفعنى الرغبة والـــرهبة والفـــاجعة وحب الاستطلاع • عربة مقلوبة مكســـــورة ، وعربة مقلوبة مفعوصة ، والزجاج مبدور يمـــلأ الطريق كحبات الارز الابيض المبعثرة ، وجثث ، أربع جثث مغطاة بقش الارز يبصرك بها الناس الطيبون الواقفون مخـــافة ان تخطىء وتدهسها ، وضابط النقطة يتم محضرا لا ادرى لماذا ولا متى بدأه ، وبرنيطة طفل صغير راقدة على التراب البعيد لا يجرؤ أحد على أخذها أو لمسها ، وعربة أســـعاف ، وسوارى ، وعربات كثيرة واقفة ، هبط سائقوها يتأملون المشهد واجمين وكأنهم يتأملون المصـــير ، وتحت الارجل

والعربات دم ، دم كثير غزير داكن كاد لونه يأخذ لون أسفلت الطريق ، والواقفون جميعا يهمســـون لبعضهم البعض وكأن شيئا كبيرا هائلا لا يزال محلقا في الجو له مخالب وعلى استعداد للانقضاض • قال أحد الواقفين ، سائق هذه العربة مات ، وسائق هذه في حالة خطرة •

والجرحى نقلوا الى المستشفى ، والقتلى ستحملهم عربــة الاسعاف • جرحى وقتلى ودم وارتباطات وصداقات ومئات الاقارب والعائلات والعمات والخالات ، تضيع كلهــا في ثانية ، زمان كان الفارق بين الحياة والموت فارق شاسع وكبير ، مرض مزمن يعجز الاطباء عن علاجه ، تزال يستمر أياما طويلة وليالى ، أما اليوم فالفارق بين أن تحيا وأن تموت بسيط جدا ، مجرد سهو يحدث ، طوبة في الطريق ان يأخذ السائق باله او لا يأخذه ، أن يضغط على البنزين بخفة أو بثقل • ولست أبالغ ، فالحادث الذى رأيته ، بضحاياه وقتلاه وجرحاه وخســـائره ، سببه ان كلا السائقين لم ير أحدهما الاخر لثانية واحــدة ! ولو كان أحدهما قد فعل لما وقع الحادث ، التفاتة ، سرحة صغيرة

ممكن أن تكون قد استغرقت لمحة خاطفة من الوقت نقلت اربعة ، وممكن ان تنقل اكثر ، من عالم حى هم فيه احياء لهم ما لكل الاحياء من قوة وحيوية وامال واولاد ومشاريع ، الى جثث تحتها التراب وفوقها قش الارز

عدت الى مواصلة السفر وفي قلبى انقبـــاض بغيض وتأملات • بالالة والبنزين والكهرباء والسكك العريضة والذرة دخلنا في عصر السرعة • والفارق بين عصرنا هذا وعصر الدواب ان مسئولية الناس في ذلك العصر كانت مسئولية جزئية فهم لم يكونوا يستطيعون التحكم تحكما كاملا في دوابهم أو حظهم وظروفهم الى درجة أنهم كانوا

يريحون انفسهم ويقولون : خليها على الله • اما فى عصرنا هذا فنحن نتحكم تحكما كاملا فى كل شيء ، ولهـــذا فمسئوليتنا كاملة عن كل شيء ، ولهذا فهي مســئولية كبيرة ، وكلما كبرت المسئولية عظم أتفه خطأ ينشأ عنها وأصبح جريمة ، جريمة قد تودى بحياة بضعة اشخاص فى عربة ، وقد تودى بحياة بضعة ملايين فى دولة

وطوال الطريق لم استطع ابدا ان انسى أن الفاجعــة التى رأيتها كان سببها هفوة ارتكبها انسان

وطوال الطريق وانا لا أستطيع أبدا ان أزيح من خاطرى الدم الغامق المتجمد والزجاج المبدور والجثث المغطاة بقش الارز ••

أمس :

وفى الساعة الثالثة صباحا كنت فى مطار القـــاهرة والليل قد رطبت الثالثة حدته وخففت ظلامه ، والمطار راقد فى قلب الصـــــحراء كالنجفة الكبيرة الموقدة ذات المصابيح المتعددة الالوان ، والطائرات جاثمة على أرضـه والركاب يصعدون ويهبطون ، وبين كل حين وحين يرتفع صوت الميكرفون يقول : يسر شركة كذا أن تعلن عن رحيل طائرتها الى بومباى والى فيينا والى براغ ونيويورك ، وأنا أودع صديقا • وفجأة أحسست برجفة صـــغيرة تهزنى وبكلمة تحتل ذاكرتى كلها وتبهرها : السفر • كم من مرة تمنيت فيها أن أمضى عمرى مسافرا متنقلا من بلد الى بلد• ونحن اطفال صغار ــ أتذكرون ؟ ــ حين كنا نفرح بالسفر ونظل طول الليل لا ننام مخافة أن يســــــاهينا الاباء ويسافرون ، أتذكرون اليقظة المبكرة والفرحة ، والمحطة ، والذهول الغريب المستولى على الناس ، ذهول السفر ، وانتظار القطار القادم من مكان بعيد مجهـــول ، ورائحة خشبه وعرباته وهى تختلط برائحة دخانه ورائحة الصباح

المبكر مكونة رائحة السفر ، نستنشقها بشغف ونهم والقطار يمضى بنا سريعا يثقب الزمن والافق ، ويذهب بنا بعيدا بعيدا فى أغوار العالم الفسيح المجهول

والاف الاشياء تغير طعمها فى افواهنا لما كبرنا والسفر وحده لم يتغير طعمه ، ولا تغيرت ابدا تلك الرغبة الملحة فى التنقل ، الرغبة التى تمنيت معها وانا واقف يحجزنى حديد السور لو يصبح فى استطاعة الانسان أن يسافر متى أراد وكلما أراد ، لو اختفت فجأة تلك الحواجز السخيفة بين الدول ، اختفت الجوازات والتأشيرات والجمارك والحدود ، حدود الدول ، وحدود الشعوب والافراد والطبقات واصبح العالم كله وطن أى انسان لمجرد كونه انسانا ، واصبح الناس فى كل مكان اناسه ، وأى بلد يحل فيها بلده وأى لغة لغته وأى عملة عملته وأى جار أخاه

الطائرات كثيرة ومحومة ، وقادمة من بلاد بعيدة وذاهبة الى بلاد بعيدة ، والذهول الحبيب يسيطر على القادمين والذاهبين ، ونفسى أحس بها تتفتح ، وأحاول أن أعثر فيها على اثر لحادثة الطريق الزراعى والخوف من عصر الطائرات والعربات فلا أجد ، اجدها قد اصبحت نقطة ، قطرة مريرة ذابت تماما فى حلاوة تلك الكلمة ذات الرنين الحلو .. السفر

العــودة ومشاكل العــودة

كل عودة الى مصر لها دائما سحرها الخاص .. ما من مرة كانت العودة مماثلة . الطائرة النفاثة تحلق . والمضيفة في الميكروفون الاخنف تقول : بعد دقائق تصــــل الى القاهرة . وتنظر من النافذة أسفلك فتجد انوارا . وتحاول التخمين . هذه طنطا ، هذه بنها ، القادمة هي القــاهرة لابد ، ولكن القادمة لا تكون القاهرة ، ان اســتعجالك للحظة الوصول يكاد يسقطك في طوخ أو في قليوب ولكنها القاهرة هذه المرة . هذه الساحة الواسعة المضاءة لا تكون — في مصر كلها — الا للقاهرة ، ما احلاك يا قاهرة ، ما اجملك من الجو فقط ، انا عائدون مرة أخرى لك ، للحمى الغريبة المزمنة ، للمعارك المعهودة ، للوجوه العجــوزة التي كادت لطول بقائها تكتم الانفــاس . . اننــا عائدون يا قاهرة ، فيك كل ما يغري بالبعاد ولكن فيك ماهو أروع من القرب والبعد والمتعة والسعادة . فيك الحياة

انني لا أعرف ماذا فينا نحن المصريين يجذبنا ، كاليويو ، بشدة وبقوة وباستماتة الى هذه البقعة من سطح الــكرة الارضية وكأنما قد دفن لنا فيها « عمل » أو شددنا اليها بتعويذة . في قلب لندن في ميدان ريجنت أو بيكاديللي ، الانوار والفتارين والحركة الهائلة المائجة والمتعة على قفا

من يشيل وسحر الحضارة الاوربية الخارق ، ولكنك ، فى لحظة ، تذكرها ، تومض قاهرتك في مخيلتك فكأنما يومض الحق، كأنما تومض الاحلام الجميلة ،فيذوب شارع ريجنت وميدانه ، تذوب حضارة أوربا ، وتتجرد ، وتقف وكأنك في الصحراء الكبرى أو فى قلب محيط الاطلنطى قد انتقلت بكل ذرةحياة فيك الىمصر ترويها بالدمع اناستطعت

انها عزيزة علينا وغالية ، وكلما قابلت اجنبيا زار مصر ووقع فى حبها ، آكاد أغار عليها من حبه ، انها تعز على المرء حتى وهو فى قلبها هنا ، أكاد كل صباح أصحو من النوم لاقبلها واقول لها كيف حالك اليوم يا مصر ، كيف أصبحت ، كيف داويت الجرح الذى خلفه الترولل بس ، وأنت يا نيلنا ماذا دهاك حتى تبتلع ابناءنا بالجملة وكأنك اصبت فى عقلك بلوثة نهم وجشع • أم تراك فى حنين ، وقد اقمنا السد ومنعنا فيضانك الى عروس النيل نفتدى بها شرك ، الا ما كان احكم اجدادنا حين كانوا يفتـــدون مئات الارواح بروحواحدة وما أسخفمهندسينا واخصائيينا اليوم حين يقررون أن حوادثك ليست سوى قضاء وقـــدر لا علاقة لها باهمال أو بعطب أو بشىء يدل على تقصير

المهم ـ تلوح القاهرة دائما ويتجـــدد الشجن ولكن السعادة تتدفق بأعظم وأروع تدفق ، والقلب ، كالموشك على لقاء الحبيبة ينبض ، أقسم ان النبض يسرع وألهث • بعد ثوان سيلامس العجل أرضك ، حتى لو انفجر العجل ومتنا فسنموت هنـــا ولن نتمزق على أرض غريبة ولن نتجمد على الثلج ، على الاقل سيتاح لنا بجزء من اللحظة ان نستنشق قبضة هواء اختلطت بترابك ولامسته ، جزء حمل معه لابد اريج اذرتنا وضربات فؤوس عمالنا ورذاذ سبابنا

ولكنا دائما وابدا ، والى ان يقدر الله نهبط فى سلام ،

وللفرحة القصوى ، أحياء ، أجزاء عائدة الى الكل الكبير .
أخيرا ، بعد البرد والمطر والعواصف والثلج والترمومترات القابع زئبقها متجمدا فى القاع ، تلفح وجوهنا نسمة الحب الدافىء أقصد الهواء ..هواءك يا أرضنا ، أرض كل هؤلاء الناس العرايا والمثقفين حتى أرض لصوصك وخفرائك ولومآنجيتك ، أرضنا كلنا بلا تمييز ولا تحيز ولا استئثار . اتفهمين ؟

وصحيح ان الاجراءات التى تتخذ فيما بين الطائرة وباب الخروج من المطار اجراءات تكاد تجعل الانسان يفكر فى العودة من حيث اتى الا ان الانسان يحتملها والسلام ، خاصة هذه المرة ، فلقد صدمت حقيقة بمشهد حوالى عشرين ضابطا وصف ضابط يقفون عند الجوازات ، ولقد مررت ورأيت بلادا كثيرة شيوعية ورأسمالية وبين بين ولم أر فى مطار من مطاراتها هذا العدد المرعب من ضباط الشرطة بالملابس الرسمية ، بل أن ضباط الجوازات فى معظم بلاد العالم يرتدون الملابس المدنية حتى لا يفزعوا ، ولا مؤاخذة ، القادمين وانى لاتساءل عن السبب فى هذا العدد الكبير وعن تواجدهم هكذا بطريقة تجعل الانسان يعتقد وكأن شيئا لا سمح الله قد حدث أو يوشك أن يحدث

فى الليلة الرابعة عشرة :

فى الليلة الرابعة عشرة فى بولندا احسست بالحنين الى مصر والى اللغة العربية ، وتجربة غريبة ان توجد فى وسط شعب يتحدث لغة لا تفقه فيها حرفا واحدا . واللغة البولندية من أصل سلافى ، واللغات السلافية كانت بعيدة عنا تماما واعتقد انها لا تزال ، وان ترى الحياة كاملة تدور حولك وتسير بكلمات ومصطلحات انت تجهلها تماما تستمع ، وتحاول أن تخمن ، وتخطىء اخطاء بشعة فى التخمين والحياة سادرة سائرة انت وحدك الذى لا تعرفها،

الحر

انفتح اكثر من مليون حنفية ، وتدفق الماء يغسل مليون رأس ووجه وقفا ، وبدأ أهل القرية يومهم مبلمين متضايقين بوز كل منهم شبرين وعلى استعداد تام لخلق مشاجرة حامية اذا وجد الشاى ناقصا سكر ، أو اذا طالبه ابنه بالمصروف او اذا لم يجد الهباب الشبشب « اللى قلت مليون مرة لازم يفضل متنيل هنا تحت السرير »

وما كادت آلاف الأبواب تفتح وتفرغ الاف البيوت محتوياتها من الافندية والعمال والطلبة حتى بدأ الناس يدركون سبب الضيق الذى صاحب يقظتهم ، اذ كان الصباح احر صباح عرفوه فى حياتهم ، صباح بدأت حرارته تصل الى التاسعة والثلاثين في غمضة عين ، صباح لم يستمر اكثر من ربع ساعة قضاها الموظفون يحتسون القهوة ويرسلون الاف السعاة الى الاف محلات الفول والطعمية والبسكوت استعدادا لبدء العمل • ولكن العمل لم يبدأ • بدأ الحر • دى ما حصلتش • قالها مليون جار لجاره وزميل لزميله ومليون ام محمد لام فيفى ، وأعقبتها أو سبقتها مليون لعنة أصابت جوونه وذلك المنخفض السخيف الذى حدث فى الصحراء وكان السبب فى تلك الموجة المفاجئة من الحر

وأصبحت الحرارة ٤٠ · وبدأت الحمى تجتاح القاهرة عشرة الاف كف على الاقل ارتفعت وهوت على عشرة الاف صدغ من اقلام ساخنة جدا ، لم ترتفع لردها اكثر من خمسة الاف كف ربما لنقص فى الشجاعة ، وربما للحكمة القائلة : بات مضروب ولا تبات ضارب وبدأت الاعصاب تلتهب وتتحول الى اسلاك نحاسية ساخنة ، وبدأت الاف العربات تتأرجح · الدركسيون ملتهب والمقعد ملتهب ، والبنزين ملتهب والاسطى محمود محموم واوع يابن ال ·· وطاخ · حادثه · وصفاره · الف صفارة · واربعة الاف جنحة ومليون خناقة واكثر من اربعة ملايين يمين باطلة اقسمها سكان القاهرة ، ومليار مرة تقلقلت عظام الاباء والاجداد لتحتمى من اللعنات والدعاوى التى تتساقط عليها بالاكوام

ووصلت الحرارة ٤١ ، وبدأت النار ·· الشوارع نار والبيوت نار والظل نار والشمس نار والاكل نار والنوم نار وثمن الثلج نار ، والراديو نار ، عبد الحليم حافظ يجأر بأعلى صوته : نار يا حبيبى نار · وأجراس تدق تتن تتن حريقة · فين · واذا الحريق مليون حـــريقة وكل حريقة فى حاجة لاطفاء · السماء فى حاجة لاطفاء والارض فى حاجة لاطفاء

والناس والعقول وحتى الماء فى حاجة لاطفاء · وتتن تتن المطافى تحاول بلا فائدة اطفاء الحـــرائق والتنظيم يحاول اطفاء الارض · والكازوزه ، مليون زجاجة كازوزه تحاول اطفاء الاجواف ، والمحاولات كلها تزيد النـــار اشتعالا · والملجأ الاخير الثلج ، التهمته النار وتحول الى دخان وحشيش ، يباع سرقة ، ويشترى سرقة ويتعاطى خلسة

وبلغت الحرارة ٤٢ · الموت · كل شىء وكائن بدأت

الإنسان حيوان مائى

كيف يحدث هذا ؟

لست ادرى كيف يحدث هذا .. من اسابيع قليلة كانت عملية غسيل الوجه او الاستحمام بالنسبة الى عملية تعذيب .. كنت اقف امام الدش واتردد الاف المرات وانا انظر الى نقاط المياه الصغيرة التى تتساقط منه واحس بالخوف منها وكأنها قطرات من ماء النار .. وبعد ان استجمع اطراف شجاعتى وافتح الحنفية ، ينساب الماء فى أزيز مخيف ، ويتصاعد لانسيابه بخـــار بارد مثلج ، وكان الماء لا يتبخر ولكنه يتجمد بخارا .. واغمض عينى فى النهاية وانا اسلم نفسى لحزمة الابر المتدفقة من الدش، كل ثقب فيه تخرج منه ابرة مائية طويلة طولها امتار . حزمة من الابر الطويلة تتساقط فوق جسدى فى شراهة ووحشية وتكاد تنغرز فيه وتصل الى النخاع .

وأى ماء كنت اراه احس لتوى بالقشعريرة منه وكأنى اخافه واخاف لمسه ، حتى النيل كنت اذا رأيت مياهه احس برهبة طاغية ، كتل ضخمة هائلة من الماء الداكن المتكاثف وكأنها غابات واحراش مائية نامية تنتظر ان يخطىء انسان ويمد فيها قدمه أو يده فتشده وتبتلعه ولا تتركه الا ... مخنوقا ..

ومن أيام قليلة حدث شيء عجيب ·· فتحت الحنفيــة لاغسل يدى ، ودون ان ادرى او اتردد وجدت نفسى اغسل يدى فعلا ، ووجدتنى لا اختصر الغسيل ، اطيل فيه ، واترك الماء ينساب على ساعدى حتى يبلغ الكوع · والماء لا يخرج منه بخار يغشو له الجو ، ولكنه يلمع كسبائك الفضة المجدولة · وكنت أريد فقط أن أغسل يدى فاذا بى أغسل وجهى ورأسى ، وأجعل الماء ينساب فى صـــدرى فأستعذب لمسه وكأنه خد الجميل ، وأجعله ينساب فى فمى وأتذوقه وأجد طعمه حلوا وكأن ثمة سكرا طبيعيا قـــد أضيف اليه

والنيل اختفت احراشه ، واختفت كتل مياهه الضخمة الهائلة ، وبدت وكأنهـــا قد شفت وخفت حتى تلاشت · ولم يعد فى النيل سوى ملايين من الموجات الصـــغيرة اللطيفة ، موجات كملايين الاطفال العرايا الحديثى الولادة، يلعبون ويداعبون بعضهم البعض ، ويتقافزون ويتراقصون ويكونون دوائر وقوافل وتشكيلات ، لا يكاد الانسان يراها حتى يحس فى الحال برغبة ، لا يستطيع مقاومتها ، فى ان يخلع ملابسه ، ويقذف بنفسه بين ملايين المـــوجات الطفلة ، يلاعبها ويدعها تلاعبه ··

وطوال يومى اى ماء رأيته ، خارجا من عربة رش ، او لامعا فى زجاجة كازوزه ، أو حتى مصبوبا من كوز ، أى ماء رأيته كنت احس برغبتى فى صبه على نفسى او شربه او حتى مجرد تذوقه ، واى ماء رأيته ولمسته كنت احس بلمسه حبيبا غير غريب ، وكأنه سلام على صديق مألوف، صديق طفولة ، ربما كانى الامس نفسى ، كأنى اصبحت ماء مثل الماء ، او اصبح الماء انسانا ··

انه الصيف ··

صفة لبعضهم السلبية والعقم ، اننى لا اعرف بلدا من بلاد العالم ثار فيه بعضهم على خلاصة خلاصته ، على هــؤلاء الذين أنفق البلد على انتاجهم المال والجهــد والسنين ، يمثل ما حدث لدينا ، وبالذات هذا الجيل من المثقفين ، ولو كانت الثورة قد استجابت لكل ما كتب وقيل لكان من واجبها ان تقوم فى الحال بمذبحة قلعة اخرى ضــد المثقفين وتركهم مشنوقين على عواميد النور فى شــارع الكورنيش • ولكن الثورة لم تفعل هذا ، لقد وقف قائدها جمال عبد الناصر فى جامعة الاسكندرية يحاضر اساتذتها ويضع يده كالطبيب الماهر على بيت الداء ويقــول ان المشكلة لم تكن مشكلة المثقفين ولكنها مشكلة الطبقات •

إذ المشكلة هكذا فعلا ، فاعداء شعبنا لم يكونوا هم المثقفين، أعداؤه كانوا الاستعمار والرجعية ، الاســتعمار بظلاله ومفهوماته وعقلياته والرجعية بكل صورها • ولهذا حاربنا الاستعمار والرجعية وحين اصبحت الرأســمالية عدوا حاربناها • اما المثقفون ، وبالذات مثقفو هذا الجيل ، فهم ، لكى يستريح عوده ، اسلم معه جدلا انهم حافلون بالعيوب والتناقضات ، ومع هذا فهم الجيل الذى صنع الثورة ، هذه الثورة ، بكتاباتهم ، بخطبهم ، بمواقفهم ، بالنار المقدسة التى أوقدوها ، بمطالباتهم بالجــلاء ، بتضحياتهم ، بالسجون التى دخلوها ، بالشهداء الذين سقطوا ، بتجاربهم المرة العنيفة مع صــدقى والنقراشى وابراهيم عبد الهادى وفيتز باتريك واللورد كليرن والملك، هم الذين هيأوا الشعب ليثور • وحين جاءت الثورة ، فعلى عكس كل ما قيل التفوا حولها ، وكيف بمن مهد للثورة لا يلتف حولها حين تجىء ، وما حدث بين الثــورة وبين قطاعات من المثقفين لم يكن نتيجة لعداء ، اذ لم تقم الثورة لتحطم المثقفين المخلصين • لقد قامت لتحطم الاســتعمار

والاقطاع والرجعية . ان ما حدث كان فقط نتيجة لاختلاف في الرأى .. اختلاف كان لابد أن يحدث ، فهو التفاعل الحيوى الخلاق الذى استفادت منه الثورة بقدر ما استفاد منه المثقفون ، والثورة يكون نجاحها أحيـــانا ليس فقط بمقدار ما تحققه من مكاسب وما تحرزه من انتصارات ولكن ايضا بمقدار ما تحدثه في المجتمع من رجة فكرية وجذب وشد واختلاف واتفاق

ما معنى الثورة البيضاء ؟

وأحد مفاخرنا أن ثورتنا كانت ولا تزال بيضاء ، وهى ليست مفخرة فقط ولكنها فى رأيى احدى دعائم الثــورة وركائزها ، فثورتنا بيضاء لانها أبقت على هذا التفاعـــل الحيوى فى حدوده المعقولة ، والثورات الاخرى الدموية ، لجأت الى الدم لضعفها ، لانها قامت تريد أن تفرض الثورة فرضا على شعبها وليس أن تخلق من مواطنيها شعبا ثائرا ، ولهذا فجريان الدماء على الارض عقم هذه الارض ، وأخمد نهائيا هذا التفاعل الخلاق بين مركز الثورة ومحيطها ، وبين القادة والشعب وبين القادة أنفسهم والشعب نفسه . وقد فعلت ثورتنا هذا وقويت بهذا الفعل لانها لم تيأس من طبقات بأكملها كما يدعونا بعضهم الى اليأس ولا نفضت يدها من افئات بحـــالها ، ان جمال عبد الناصر قد وضع بخطبه الاخيرة دستورا ثوريا جديدا حين تحدث عن فساد « البعض » ويأسه من « البعض » ولم يحكم أبدا على طبقة أو فئة ككل ، وحمد الله أن الذين يكتبون عندنا ليسوا هم الذين يحكمون ، اذ من يدرى اذن ، ربما كانت الدماء قد سالت أنهارا ، وبلا سبب ، ان أخذ بعضهم الامور مأخذا « فنيا » « جماليا » بحتا

هى العقل فهم الاعصاب ، والجفوة بينهما لا محل لها ولا معنى .. بالعكس ، أى خطوة لن يستفيد منها الا أعداء الثورة أعداء المثقفين . وبالذات مثقفى هذا الجيل المفترى عليهم ، انى لعلى ثقة من أن بعض عيوب التطبيق عندنا مرجعها الى نبذ المثقفين والنظر اليهم بعين الشك ، وكيف يحدث هذا والثورة عندهم ، كالقلب ، غالية لا يتوقف لها نبض . كيف يحدث هذا وهم الذين طالما دعوا لها وبشروا بها وكانت أقصى آمالهم أن تنجح وتمضى وتستمر ، بل حتى فى خلاف بعضهم معها ، كان السبب شـــدة الحرص على نجاحها وانطلاقها . انى لا أستطيع أن أتصور ثورة تحارب الاستعمار العالمى والاحتكارات والاقطاع فى الداخل ورأس المال المستغل بلا جيش من المثقفين بلا خبرة المثقفين ، بلا اخلاص المثقفين ومثاليتهم .. حتى بلا اخطاء المثقفين ، فأهون الاخطاء دائما هى اخطاء المثقفين ، الا ذلك الخطأ الذى يتردى فيه بعضهم أحيانا ويطالب بابادة المثقفين وكأنهم جراد أو ناموس أو ذباب ذو طنين . والمصيبة أن هذا يحدث دائما من أحد المثقفين . واللهم احم كل المثقفين من بعض المثقفين ..

انهزم العدوان
وانتصر الروتين

لى مع العدوان الثلاثى الغاشم قصة خاصة ، كلما هل علينا نوفمبر من كل عام أتذكرها ، ورغم أن معارك الشعب تتخذ ذكراها باستمرار طعما خاصا كلما تقادم بها العهد ، اذ هى لا تفقد أبدا محتواها العاطفى • كلما استعدناها استعدنا معها أحاسيسنا العارمة بأول شعور بالغزو الاجنبى أحسه جيلنا ، فالغزو كنا نقرأ عنه فى كتب التاريخ ونحاول تخيل موقف شعبنا فى الاسكندرية وكل مكان وهو يواجه الاسطول البريطانى ويلتف حول عرابى ليلقى بالغزاة فى البحر ، أما فى عام ١٩٥٦ فقد وقفنا مع شعور الغضب الخلاق المجيد وجها لوجه ، وأحسسنا لاول مرة فى حياتنا بمعانى كلمات كنا نرددها ترديدا نظريا أجوف مثل الغزو المسلح ، والاستعمار العسكرى ، والغدر الاستعمارى ، ومؤامرات الدول الكبرى وخستها • كل هذا عشناه وشعرنا به وخضناه كتجربة موت وحياة ، تجربة تعاظم فيها احساسنا بالخطر • وتعاظم أكثر شعورنا بالرغبة المستميتة للوقوف فى وجه هذا الخطر وسحقه • ان كلمات جمال عبد الناصر سنقاتل •• سنقاتل ••• سنقاتل ••• ولقد كتب علينا القتال كما كتب علينا الاستشهاد ••

لم أذهب الى هناك وأنه راجع الدفاتر فوجد أنى لم أكن قد طلبت اجازة أو أبلغت بمرضى ، فكيف أتغيب يوم ٥ نوفمبر بطوله دون اذن ؟

وجعلتنى الاسئلة الكثيرة أتذكر . فيوم ٥ نوفمبر كان سادس أيام العدوان الثلاثى ، وكنت فعلا قد تركت القاهرة بكل ما فيها من عمل ومسئوليات وذهبت مع الاصدقاء أحمد عباس صالح وكامل زهيرى وأحمد مجاهد وسعد زغلول فؤاد وعادل أمين ، الى المطرية ، فى طريقنا الى بور سعيد حيث وجدنا الصديق الفنان حسن فؤاد ينتظر هو الاخر أن يهرب الى بورسعيد .. وكان المسئول عن العملية كلها وعن جبهة المطرية الضابط « م . أ » وهو أحد أبطال جيشنا الاحرار . وقصة سفرنا الى المطرية ومحاولات تهريبنا الى بورسعيد فى حد ذاتها صفحة من صفحات كتاب العدوان ليس هذا مكانها ، ولكن المهم أنها حدثت يوم٥نوفمبراليوم الذىاستدعتنىالنيابة الادارية لتحقق معى عن سبب تغيبى فيه ، والحقيقة أن السؤال روعنى ، فالبلاد كلها كانت تواجه خطرا داهما وكانت هناك غارات مستمرة على القاهرة والمواصلاتمتوقفةوالكهرباء تسحب أثناء الغارات ،والشعب كله بفلاحيه وموظفيه وعماله قد ترك كل شىء ليتفرغ تماما لمواجهة العدوان ورد الطغاة ، كله ، الا ذلك المفتش «الفنى» الذى استيقظ مبكرا جدا واخترق القاهرة المشتعلة والجماهير المحترقة بالحماس والغضب ، ولم يأبه لهذا كله وانما مضى بنشاط غريب الى مكتب صحة الدرب الاحمر ليجلس هناك منذ الساعة الثامنة صباحا ليعرف ان كان طبيب المكتب سيحضر فىميعاده ،أم سيتأخرساعةليتسنى له أن يضع تقريرا عن هذا التأخير ؟ بأية عقلية فعل هذا كله ؟ وبأى مقدرة خارقة استطاع أن ينفصل نفسيا عن

شعبنا كله ليتركه يواجه المعركة ويتفرغ هو لضبط موظف في حالة تأخير أو غياب

ورفض وكيل النيابة أن يكتب ردى أول الامر ، ولكنه رضخ للامر الواقع وكتبه ، اذ قد طالبت فى ردى لا بأن يحدث التحقيق معى عن غيابى ولكن لابد من التحقيق مع المفتش « الفنى » هذا بتهمة أنه كان يؤدى عمله التافه فى وقت تتعرض فيه البلاد لاقسى محنة مرت بها ، ان أداء العمل الروتينى حينئذ هو الجريمة وليست الجريمة ترك العمل لانقاذ الوطن

ولكن الروتين هو الروتين ، والجهاز المنحط هو الجهاز ، والروتين مع الانجليز والاستعمار والعدوان ولا يعقل أبدا أن ينقلب ويصبح مع الشعب والوطنية ، والشيء الذى يحز فى النفس أننا هزمنا العدوان الثلاثى حقيقة وقضينا على الاستعمار ، ولكننا لم نستطع أن نقضى على الروتين .. ففى قضيتى الخاصة ، ورغم الظروف الواضحة ، انتصر الروتين ، وكانت نتيجة التحقيق ، بعد انقضاء أكثر من عام على هزيمة العدوان ، أن جوزيت بخصم ثلاثة أيام من مرتبى مع الانذار لانى تغيبت بدون اذن يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦

بصراحة

انتهت اللجنة التحضيرية من المناقشات العامة وقد سمعت كثيرين يقولون ان النقاش داخل اللجنة التحضيرية قد طال وتشعب واننا في ثورة لا تحتمل هذا الاخذ والرد

والحقيقة أنها وجهة نظر بالغة الاهمية فبعض الآجراءات الثورية تفسد فاعليتها بمحاولة الاعلان عنها أو طرحها للمناقشة قبل التنفيذ ، ولكن هناك وجهة نظر أخرى لا تقل أهمية ، لكى ندركها لابد أن نسأل أنفسنا أولا :هل الثورة هي النجاح فى سن وتطبيق الاجراءات الثورية ، أم الثورة أساسا، وقبل أى شيء آخر هي إيمان الناس بحتمية هذه الاجراءات وادراكهم لضرورة القيام بها وتبينهم لها ، والناس هنا هم أولا طبقات الشعب وفئاته التى قامت من أجلها الثورة وتسن من أجل مصالحها هذه القوانين

ذلك هو السؤال ، والاجابة عنه — ونحن فى صدد بناء الهيكل التنفيذى والتشريعى للثورة — من الاهمية بمكان، فالاجراءات الثورية ضرورة حتمية من ضرورات أى ثورة ، وايمان الناس بهذه الاجراءات وفهمهم وهضمهم وتبينهم لها ضرورة لا تقل أهمية ، فهذا الايمان هو الحماية الاولى والاخيرة للاجراءات ومن ثم للثورة نفسها

(*) كتبت عام ١٩٦٢

المشكلة اذن ليست القيام بالاجراءات الثورية ، المشكلة الحقيقية هى فى ايمان الناس ايمانا لا يتزعزع بهـــا ، فالايمان هو الثورة ، اذ حين يدرك الفلاح ويؤمن ايمانا عميقا أن الارض التى يزرعها هي من حقه ، ومن حقه وحده تملكها ، وجودهذا الايمان فى قلب الفلاح حتى ولو لم يكن باستطاعته تملك الارض هو الثورة ، أما منح الخمســة فدادين لفلاح لا يزال يدرك أن الارض لمالكها وأنها خير هبط عليه من السماء أو ورقة يانصيب ربحها ، فهو عمل حقيقة قد يرفع من مستوى الفلاح ويجعله مالكا ولكنه أبدا لا يعد ثورة ولكنه من نتائج الثورة ... وهذه الكلمات الضخمة الجوفاء التى نسمعها تقال وتطلب « الرحمة » و « العدل » ومنح « الفرص الاخرى » للاقطاعيين والرأسماليين كلمات اذا تعمقنا أصلها وجدنا أن سببها راجع الى أن قائليها ، بعد ، لم يؤمنوا بالثورة ، ويعتقدون مثلا أنها « مصائب » حلت بالرأسماليين والاقطاعيين ، أو اجراءات قامت بهـــا « الحكومة »

فليستمر النقاش

النقاش اذن داخل اللجنة التحضيرية وداخل المؤتمــر العام ، حتى ولو استمر طويلا ، ليس واجبا فقط ، ولكنه ضرورة حتمية لابد منها لكى يتبين الناس القوانين الثورية، ولكى تحس جماهير الشعب وتدرك أن التغيير لها ولمصلحتها وأنه ليس عقابا لاحد على ذنب ارتكبه ولا محاولة للانتقام من عبود أو فرغلى للوسائل غير القانونية التى لجأ اليهـــا هذا المواطن أو ذاك من « الاغنياء » كى يثروا ، ولكنــــه تغيير اجتماعى جذرى فى طريقة حياتنا ووســـيلة وطرق انتاجنا ، تغيير يمليه العلم والتطور والمصلحة ، تغيير ليس هدفه « رفع » مستوى حياة البعض « بمصادرة » أموال

البعض الاخر ، ولكنه تغيير هدفه أن يكمل تحررنا ٠٠ وبمثل ما طردنا المستعمر كي نتحرر كشعب ، نحطم النظام الاستغلالى الاستعمارى كي يتم تحررنا كأفراد

مثل هذا التغيير قد يتم علي الورق بقوانين واجراءات نصدرها أما لكى يصبح حقيقة واقعة لها كل قداسة الايمان فلا بد أن يعقبها تغيير جذرى مماثل داخل كل عقل وقلب ، لابد أن يؤمن كل منا ايمانا راسخا به ٠ والانسان لا يؤمن الا اذا اقتنع ٠ والاقتناع لا يتأتى الا بالنقاش ، ومن أجل هذا فنحن فى حاجة الى مناقشات كثيرة ومناقشات ٠٠ نفس حاجتنا الماسة الى الاجراءات

الديمقراطية

وهو موضوع يقودنا فى نفس الوقت لمناقشة كلمة كثر استعمالها فى الآونة الاخيرة ٠٠ الديمقراطية ٠ وقف خالد محمد خالد يدافع عن ديمقراطية مثالية ورد عليه الرئيس بمفهوم علمى للديمقراطية الاشتراكية ٠ والديمقراطية على أى الحالات تعنى أن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، جاءت الثورات الوطنية لتحقق هذا المبدأ ، وحين قامت الثورات الاشتراكية وضعته نصب عينيها ، اسما فى حالات ، وحقيقة محدودة فى حالات أخرى ، وكان لا بد لثورتنا هى الاخرى أن تأخذ موقفا ما من الديمقراطية باعتبار أنها الحرية الكاملة للشعب واللا حرية لاعداء الشعب ٠ والوسائل والاشكال الديمقراطية كثيرة ومختلفة ولكن هناك ركنا هاما من أركان الديمقراطية لا بد منه لاى حكم شعبى وسواء في ديمقراطية سليمة أو حتى فى ظل أوضاع ديمقراطية فاسدة ٠ هذا الركن هو : مسئولية الحكومة أمام الشعب ٠ فلنتبع فى حكم أنفسنا أى طريق نشاء ولكن لابد أن يكون لنا فى النهاية وسيلة نستطيع بها أن

نحاسب الحكومة ، لابد لنا من جهاز من حقه أن يراقب ويناقش أعمالها ومشاريعها وسياستها وينقدها ويوجهها . لا لمجرد مبدأ المراقبة والمحاسبة والتوجيه ولكن لكى تتم أساسا عملية الايمان بكل ما تقوم به الحكومة من اجراءات فالايمان كما قلنا لا يتأتى الا بمناقشة والا بحق فى المناقشة وحق فى ابداء الرأى

لقد كشفت مناقشات اللجنة التحضـــيرية أنه حتى مثقفينا الكبار ، بعض أساتذة الجامعات ووكلاء الوزارات مثلا ، متخلفون فكريا وثوريا عن قيادتنا ومفهومنا للحكم والثورة ، وهو ليس عيبا فاضحا كما يبدو للبعض ، انه فى رأيى ظاهرة طبيعية جدا سببها الاول الانفصال الفكرى بين القيادة والقاعدة ، وحتى اذا نحن ضيعنا وقتا كثيرا مع هؤلاء لنناقشهم ونفهمهم كى يصلوا الى مستوى القيادة فى الايمان فهو وقت غير ضائع أبدا ، انه وقت نكسبه ، ونوفر به أن نبنى البناء على غير أساس من التفهم الكامل واليقين . ان الثورة لكى تستمر ماضية ناجحة مكتسحة لا بد أن تمضى بنا كلنا ، بفهمنا الكامل لها ، باقتناعنا وايماننـا وارادتنا ، فنحن الهدف من قيامها ونحن أيضا الوســيلة لاقامتها

فلتوسع القيادة صدرها

ان الخطوات التى حققتها ثورتنا تعثرت ثورات كثيرة وهى تحقق بعضها،ومهمة ثورتنا ليستمهمة تخص الشعب فى مصر فقط ، ان مصر سواء أرادت أم لم ترد هى حاملة لواء الثورة العربية كلها ، وجمال عبد الناصر هو الزعيم الذى أجمعت الشعوب العربية رغم الحـــديد والنار على مبايعته .. انها تضع فيه كل امالها ، كل مطامحها وأبام مستقبلها . وهى حقيقة لا تقولها خطابة أو انشاء ، انها

واقع ملموس يكفى أن تطوف البلاد العربية لتراه وتحسه وتفخر به . ثورتنا غالية اذن لانهـــا ثورة العرب ، على مصيرها يتوقف مصيرهم وأعداؤنا يعلمون هذه الحقيقة تمام العلم ويبنون كل خططهم فى المنطقة على أساسها

ثورتنا هى أغلى حقيقة نمتلكها اذن وأمضى سلاح عثرنا عليه بعد طول عناء وطول فشل وجربناه ونجح النجـــاح الاكيد، من واجبنا اذن أن ندافع عنها الى آخر رمق ونحفظها، وأولا وقبل كل شىء نهيىء لها أسباب النجاح ، من واجب كل منا أن يساهم بقلبه وعقله ولسانه ، أن يحياها ويربط مصيرها بمصيره ، ويجب أن تتهيأ قيادة ثورتنا لهـــذه المشاركة الجماعية الكبرى وأن توسع صدرها ، حتى لاراء كهذه يعرضها صاحبها بشكلها الخام الذى واتته به. يجب أن ندرك أننا ما لم نغير جذريا من الطريق الذى كنا سائرين فيه فمعنى هذا أننا سنعود لارتكاب نفس الاخطاء. ومحال أن نظل نرتكب نفس الاخطاء فقد ظل شـــعبنا ، وظلت شعوبنا العربية كلها تنتظر يوم الخلاص على أيدى ثورة تنبثق منها وتندفع بها بقوة الى الامام ، والثـــورة جاءتنا وعاشت بيننا زمنا فأى موقف سلبى منها جريمة

ليقل كل منا ما عنده ، ولتسمع القيادة وتع وتنفذ ، ولنكن صادقين مع أنفسنا وبعضنا البعض خاصة ونحن نتحدث عن قمة الصدق ، ونحن نتحدث عن الثورة

كلمة الثناء
قد تقتل أحياناً

قابلت اليوم الرجل الذى كاد يقتلنى مرة بسبب كلمة ثناء عابرة قلتها له ، وكانت المقابلة مفاجأة لكلينا ، فلم أكن أتوقع أن يعمل عم عفيفي سائق تاكسى بعد احالته الى المعاش ، وهو لم يكن يتوقع أبدا أن يكون زبونه هذه المرة ، هو نفس الطبيب ، رئيسه السابق فى الصحة ، ولكنها الصدف المحضة آثرت أن تجمعنا وهى التى أعادت الى ذاكرتى أيام الصحة ، وأوبئتها ومشاويرها ، والعربة الفورد المتهالكة التى كثيرا ما خرجت بها مع عم عفيفى فى مأموريات رسمية . وكان للعربة أكثر من سائق وكانوا يتمتعون جميعا بخاصية البطء الشديد والقلب الميت ، ما عدا عم عفيفى المتحمس السريع الذى كان رغم هذا أكبرهم سنا

وحدث أن بلغ اعجابى به ذات يوم أن قلت له مادحا .. انه أسرع سائق فى القاهرة .. والحقيقة كان قولا أغبر ، فما من مرة ركبت فيها العربة معه بعد هذا الا وأركبها وأركبنى ألف عفريت ، حتى لقد كنت أقطع الرحلة وأنا نصف واقف أكاد لولا الحياء أن أقفز من النافذة أو أستغيث بالمارة . وطبعا كنت لا أسكت ، طوال الطريق

استحلفه وأرجوه وأحيانا أستعمل سلطتي وآمره وأنهره .. وعبثا ما كنت أحاول ، فقد كان يأخذ كلامي على محمل اخر ، يعتقد أني أطلب منه أن يبطيء لاني أشك في قدرته على القيادة السريعة ، ولهـــذا كان يندفع بسرعة أكبر ، ليثبت لي انه لا يزال هو الشخص الذي قلت عنه يوما أنه أحسن سائق بالقاهرة . والنتيجة أن حدث ما كان لابد أن يحدث يوما ، ووجدت نفسي ذات مشوار ملقى على الارض أمام وابور زلط تحت رحمة عجلاته التي لا ترحم ، فقـد اصطدمت الفورد به صدمة بلغ من شـــدتها أن حطمت المقدمة ـ مقدمة عربتنا طبعا ـ وفتحت أبوابهـــا قسرا وألقتني أنا أمام الوابور وجعلت عم عفيفي يغطس في الدواسة

الدرس القاسي

حكاية صغيرة كما رأيتم ، ولكنها لقنتني درسا لا أزال أعيه ، اذ دلتني يومها على خطورة الكلمة ، وبالذات كلمة الثناء . كلمة ثناء صغيرة قد تقولها حتى وأنت غير مؤمن بها ممكن أن تكهرب شخصا بريئا ، وممكن أن تدفعـــه للنجاح الهائل أحيانا ، وأحيانا للسقوط في الهاوية أو على الاقل أمام وابور زلط . بل غيرت هذه الحادثة من مفهومي للغرور ، فقد كنت أعتقد قبلا أن الغرور شيء ينبع من داخل النفس ويجعل صاحبه يؤمن بأنه يملك قدرات هو في الحقيقة لا يملكها . تأكد لي يومها أن الغرور شيء يفد على الشخص من الخارج ، من المحيطين به واللاصقين . وانه ينتج عن سماعه لكلمات الثناء فقط ، فالكائن منا يتحرك الى الامام تحت تأثير قوتين متضادتين متناقضـــتين ، قوة ثقته بنفسه وقوة عدم ثقته بها ، قوة ايمانه بما لديه من ملكات وقوة احساسه بنقص ما لديه من ملكات ، قـــوة

رضائه عن نفسه وقوة سخطه عليها ، قوة احساسه أنه يصيب وقوة احساسه أنه يخطيء ، والثناء فقط ، كالدفع من ناحية واحدة فقط يجعل خط حركة الانسان ينحرف الى الناحية المضادة ، ثم لا يلبث بمواصلة الثناء أن يزداد انحرافا ، الى درجة تميل حركته الامامية لتصبح قوسا،ثم دائرة ، ثم دائرة مفرغة يتحرك فيها حول نفسه ويكف عن قلقه لبلوغ الاحسن واكمال النقص • الغـــرور اذن نهاية وتوقف وشلل يصيب الكائن الانسان ، سببه تلك الجرعات السامة من الثناء التى يسقيها له أناس يهمهم التقرب اليه ، جرعات يتناولها الانسان بلا احســـاس بخطورتها فى أول الامر ولكنها بمضى الوقت تصبح ادمانا فيسمع المغرور الثناء الواضح الزيف ومع هـــذا يطلبه ، ويفعل المستحيل ليظفر به حتى وهو يراه رياء وتملقا ، اذ لا يملك الا أن يتجرعه ، ربما ليحس أنه يتحرك ، ربمـا ليخدر وعيه عن شعوره الداخلى العميق بأنه واقف فى مكانه ومشلول

لكى يظل الانسان ماضيا فى حركته الى الامام لا بد من كلمة أخرى تقال له ، كلمة تدفع من الناحية الاخرى ،كلمة النقد ، فالثناء من ناحية ، والنقد من ناحية أخرى همـــا الطريقة الوحيدة التى لا يعرف البشر سواها للحركة • فالانسان لا يتحرك وحده ، انه يتحرك فى جماعة ، واذا كان دور الفرد بالنسبة للجماعة أمرا معروفا ومشهورا ، فدور الجماعة بالنسبة للفرد دور أكثر أهمية • فكلماتها وآراؤها وهمساتها وزجرها هى التى تتغذى عليها نفسه وبالتالى تستمر تحيا وتتفاعل وتتحرك ، وأى فرد فى أى جماعة اذا وجدت فيه ناحية تستحق الثناء فلابد ستوجد فيه ناحية تستحق النقد ، واذا وجدت فيه ناحية تستحق النقد فلابد أن تجد فيه ناحية تستحق الثناء

بصراحة .. نحن نستعذب الشكوى

فليتهمنى البعض بأنى أتجنى وأطلق أحكاما عامة وآخذ المجموع بذنب أفراد ، ولكن الحقيقة أننا شعب كثير الشكوى . بدأت أومن بها وأنا أتصفح اليوم خطابات جاءتنى ، وأنا أجلس مع الزملاء فى الجريدة ، وأنا أقضى العيد فى البلدة، وأنا فى الترام والاتوبيس وفى أى مكان. بدأت أومن أننا توصلنا لحل عبقرى يعفينا من مسئولية حل مشاكلنا بأنفسنا ، هو الشكوى منها والاكتفاء بالشكوى . بل لا مبالغة اذا قلت اننا أدمناها واستعذبناها وأصبحت متعة أن يئن أحدنا للآخر بأنين أكثر استدرارا للدمع من أنينه

انى لأتساءل ، ماذا حدث لنا ؟ ... المفروض أن الشكوى ، مثلها مثل البكاء علامة عجز كامل . والمفروض أن يحاول كل منا أن يحل المشكلة التى تواجهه بنفسه ، فاذا عجز استعان بأقرب الناس اليه ، فاذا عجز طلب العون من المعارف والمجتمع ، فاذا فشل هذا كله فى حل مشكلته كان له أن يشكو من الزمن والحظ ويتألم ، ولكننا نبدأ حل أى مشكلة بالعجز عن حلها ، بالشكوى منها .. فاذا فشلت الشكوى فى حلها ، رحنا نفكر فى

أنسب شخص ممن نعرفهم لنعهد اليه بمهمة حلها ، فاذا لم نجد لجأنا وأمرنا الى الله ، الى أنفسنا لحلها • ونفعل هذا كله دون خجل أو حياء وكأنه ليس عيبا أبدا أن نحمل الآخرين آلامنا ومتاعبنا حتى ونحن ندرك أن لديهم هم أيضا آلامهم ومتاعبهم •• عملية تنصل مخجلة من المسئولية •• عملية لا يقوم بها الا العبيد حين كانوا يعتبرون انفسهم غير مسئولين عن أنفسهم ، يعتبرون سيدهم في الماضي ، والحكومة أو غيرها في الحاضر ، هو المسئول عنهم وعن حل مشاكلهم ، فاذا لم تحل لهم المشاكل دون أن يحركوا ساكنا بكوا واشتكوا وطالبوا ، برفع الظلم •• ولماذا لا تتولون أنتم بأنفسكم رفع هذا الظلم ؟ لماذا تفعلون كالاطفال وتطلبون من غيركم أن يحقق لكم ما تريدون ؟ لماذا لا تحققون أنتم وبسواعدكم ما تريدون •• ؟

يقولون لك : حاولنا وفشلنا •• طيب ، وما فائدة الشكوى اذن ؟ •• نحن نفضفض بها يا أخى •• أتريد أن ننفجر ؟ أجل •• هذا هو بالضبط المطلوب من أى انسان مسئول عن نفسه ، أن يغتاظ فعلا ، لا الى درجة الانفجار ، وانما فقط الى درجة أن يعمل ، بل حتى الى درجة الاحساس بأن مشكلته لن تحل الا اذا حلها هو بنفسه ، هذا هو الفارق الدقيق الخطير بين الطفل والرجل ، بين الشعب المستعمر الذليل والشعب الحر المستقل •• انى لأسأل كل من سبق وبكى واشتكى •• ماذا فعلت له الشكوى ؟ وأسأل كل من لا يزال يشكو ••• أى كائن وهمى تطلب منه أن ينصفك ما دمت أنت لا تنصف نفسك وتنوح كالعجزة والارامل على حالك .. لقد تحولنا الى معارض متنقلة للانين والشكوى . كل منا ينفرد بالآخر ليشكو همه ، ليشحذ منه بعض الرثاء ، كل منا يتشبث

بالآخرين ويستصرخهم لحل مشكلته ، والآخرون يستصرخوننا لحل مشاكلهم ، والنتيجة أن يضمنا جميعا قيد الشكوى الذليل ويبقينا فى أماكننا ...

نحن لا يمكن أن نقف كشعب ما لم نقف كأفراد ، ولن نقف كأفراد ما لم يؤمن كل منا أن باستطاعته أن يقف فعلا ، ويمشى ، ويخطى العتبة ، دون حاجة الى دادة ، ودون حاجة لاستدرار عطف اناس أولى بالعطف

زيارة السيد البدوى

ما كدت أصبح فى طنطا حتى فكرت بطريقة غريزية تلقائية فى زيارة السيد البدوى ، ولم أكن أتوقع أبدا أن أكتشف خلال الزيارة أعجب وأغرب معجزة عرفتها فى حياتى . والذى حدث أننى دخلت الضريح وملست على النحاس ، وقرأت الفاتحة وأنا أدور حول المقام ، وتأملت النسوة المتعلقات بحلقات النحاس يستحلفن السيد البدوى فى همس مستميت ملح ، وطلبة الازهر والتوجيهية وهم يذاكرون ويصلون صلاة حارة جدا هدفها النجاح لا ريب ، وسرحت قليلا مع الضوء الكهربى الأخضر المنبعث من داخل القبة العالية ، والسقا الذى يوزع ماء من قربة غريبة الشكل . ولم يستوقف بصرى من هذا كله الا نحاس المقام اذ كان ناعما جدا ومتآكلا بطريقة تدل على أن مئات الملايين من الايدى لابد قد ملست عليه وتشنجت ممسكة بحلقاته ..

والى هنا كدت أغادر المسجد وأنا غير راض تماما عن الصورة التى رأيتها مفضلا ألف مرة أن أحتفظ لنفسى بالصورة التى رسمتها للضريح فى خيالى ، لولا أنى تذكرت أنهم كانوا يقولون لنا ونحن صغار أن ضريح السيد

البدوى يوجد به حجر مطبوعة عليه أثار أقدام النبى عليه السلام • والحقيقة أنى كنت ـ حتى وأنا صغير ـ لا آخذ هذا القول مآخذ الجد وأعتقد أنه مجرد خرافات وتهاويل • ولكنى قلت لنفسى : اسأل • وسألت : واذا بى أفاجأ مفاجأة كبرى فقد كان الامر صحيحا ، وفى ركن من الضريح كانت هناك حقيقة كتلة ضخمة من حجر البازلت الاسود حولها حاجز حديدى سميك ومطبوع عليها آثار قدمين كبيرتين • وقفت مذهولا أرقب الجمع المتكاثر حول الحاجز ، جلابيب وبدل وملاءات سود وكل يحاول أن يدخل يده من حديد السور الضيق ويلمس الحجر ويتبرك به • وقفت مذهولا أستعد لاضخم تغيير سيعترى حياتى حين أنبذ كل علم أو منطق وأبدأ أومن بالخوارق والمعجزات • وأى علم ممكن أن يؤمن الانسان به وأمام عينيه آثار أقدام مطبوعة فى الصخر بقوة مهولة خفية ؟ يستطيع أن يمد أصابعه ويلمسها •• ويستطيع أن يلتقط لها صورا ويضع أصبعه فى عين كل من يحاول أن ينكر أو يكابر ؟!

ولكن ، ربما بركة السيد هى التى دفعتنى لكى أزاحم وأقترب جدا من السور والحجر وأفحص آثار القدمين المطبوعتين • ولم يحتج الامر فحصا أو تدقيقا ، فمن النظرة الاولى أدركت أن لا معجزة هناك ولا يحزنون • فقد كان واضحا أن أثر القدمين مطبوع بفعل فاعل ، وأنه محفور فى الصخر بأزميل حفار بدائى واضح أيضا أنه لا يعرف الكثير عن شكل الاقدام وتشريحها

واعترانى الغضب فقد أدركت أن هؤلاء الناس الطيبين المتزاحمين ، وكل الملايين التى زارت الضريح قبل هذا والذين سيزورونه هم ضحية خدعة ساذجة لا أعرف من تسبب فيها ولكنى أعلم تماما من يسأل عنها ، فادارة

الجـــامع الاحمـدى أعتقد أنها موكولة لوزارة الاوقاف ، وأعتقد أيضا أنها المسئولة عن هـذه المعجزة الزائفة وعن الترويج لها وعن احاطتها بذلك السور الحديدى المتين ..

وشيء غريب هـــذا ، وزارة الاوقاف التى تطلق آلاف وعاظها فى المساجد والقـرى ينهون النـاس عن الغيبة والنميمة والرجس الذى هو من عمل الشيطان تسـتحل لنفسها أن ترتكب كبرى الكبائر وتتبنى معجزة زائفـة ليست من الاسلام فى شيء وتخدع بها ملايين البسـطاء والسذج وتوهمهم أنها آثار أقدام الرسول ، وكأنها لاتدعو الناس للايمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم على أساس أنه صاحب الرسالة المحمدية الخالدة ولكن لانه الرجـل الذى سار على الحجر فغاص الحجر بأقدامه ؟

وشيء من اثنين : اما أن هذا الحجر معجـزة حقيقية ، وعلى وزارة الاوقاف حينئذ أن تخرجه وتجند نفسها لعرض هذه المعجزة على سكان العالم أجمع باعتبار أنها شيء خارق للعادة ممكن أن تنسخ أى معتقد اخر وتغير تغييرا جذريا فى حياتنا وعلومنا ونظرتنا الى الكون والواقع والمستقبل

واما أنها معجزة زائفة وفى هـذه الحـالة فلا بد من محاكمة المسئولين عن هذه الخدعة الكبرى ، الذين غرروا بملايين القلوب الطيبة ، ولابد من توضيح حقيقـة هـذه « المعجزة » وازالة ذلك الحجر من المسجد ووضـعه فى متحف الحضارة الاسلامية على اعتبـار أنه نموذج بدائى لفن الحفر على الصخر صنعه فنان مجهول فى أحد القرون الهجرية ..

وقد يحدث هذا ، وتزيل الوزارة الحجر ولكنى أشـك كثيرا فى قدرتها على ازالة «المعجزة» من أذهان النـاس . فقد غادرت الجامع الاحمدى وصدرى يحفـل بأحاسيس كثيرة أهم ما فيهـا هو تصـورى لكم من ملايين الايدى

واللمسات استلزمها الامر ليتحول السور الحديدى الذى حول قطعة الحجر ، ولتتحول قطعة الحجر نفسها الى حرير ناعم ، تصور جعلنى أدرك أن المعجزة الحقيقية ليست هى فى آثار الاقدام على الصخر ، ولكنها فى آثار ملايين الايدى التى انطبعت على النحاس والحديد وبرته ونعمته . المعجزة الكبرى أيضا ، ملايين الناس ، حين تؤمن فتبرى بأيديها النحاس ،وحين لا تؤمن فلا يفلح فى ردها حديدولا رصاص

خسارة
٨٠ مليون جنيه

بينما كانت القاهرة تشوى سكانها على أحر نار ، كنا نحن فى بقعة أخرى من أرض مصر الحرارة فيها لا تفترق كثيرا عن الحرارة فى جهنم ، ولاول مرة منذ أن وعيت بالعالم أحس به حارا الى تلك الدرجة ، لاول مرة منذ أن عرفت الهواء أشعر به يهب ناريا لافحا لاسعا بمثل ما كنت أشعر به ، كنا فى المنيا ، وهى أول مرة فى حياتى أهبط فيها أرض الصعيد ، وتشاء الحكمة أن أختار لهذا الهبوط أو الصعود يوما ضرب الرقم القياسى فى درجة لهيبه ، فكأنما جاء يوما صعيديا هو الاخر ، مغرقا فى صعيديته ..

وكنت دائما أتلهف على رؤية الصعيد ، ليس رؤية عابرة من خلال قطار الاقصر وأسوان وانما رؤية حضور واندماج وتأمل ، وكنا أربعة فى الاستيشن واجن ، الدكتور النبوى المهندس وزير الصحة والدكتور رشوان فهمى نقيب الاطباء والدكتور حليم جريس أستاذ الجراحة بالقصر العينى ، وكنت أنا معهم

ومنذ اللحظة التى غادرنا فيها حدود القاهرة وأنا أتطلع بشغف زائد الى الارض والناس والمدن الصغيرة وكأنى فى طريقى لرؤية بلاد غريبة لم ترها عين قط ، نفس شغفى

الذى أحسسته حين زرت أوربا لاول مرة • ان الصعيد له فى أذهاننا معان كثيرة ، وقد اكتشفت أنه ليس صعيدا واحدا وانما « أصعدة » كثيرة • الصعيد الجوانى والبرانى وبحرى أسيوط وقبلى أسيوط والوسطانى وكل منها يعتقد أنه الصعيد الذى لا صعيد غيره ، على أية حال ومهما كان اسم البلاد التى كنا نراها ، فقد كانت بلادا مصرية ، وكانت جميلة رائعة الجمال

أما المستشفيات التى بدأنا نزورها كانت فى المنيـــا ، وسواء كانت مجهزة خصيصا للزيارة أم هو حالها الدائم ، فقد كانت والشهادة لله أنظف مستشفيات رأيتها فى مصر بما فيها مستشفيات القاهرة ، وكان فيها ، وياللغرابة ، زهور موضوعة فى الممرات ، وداخل هذه المستشفيـــات والوحدات الريفية كنا نجد زملاء وأطبـــاء وممرضات وحكيمات ، فى هذا القيظ الحارق شاعرين بدورهم مدركين أنهم يحاربون فى خط النار الاول ضد المرض حتى لو كانت الحرب تدور فى وحدات ضارية فى بطن الجبل أو راقدة كالحمامة البيضاء على حافة الصحراء ••

والسبب فى دقة ادارة هذه المستشفيات والوحــدات بسيط جدا •• فاللواء عبد الفتاح فؤاد منــذ عامين ضرب عرض الحائط بكل القوانين المالية السـخيفة وأعطى المستشفيات والوحدات استقلالا ماليا ذاتيا ، وحين سألته عن نتيجة التجربة وعن عدد الاختلاسات أو السرقات التى حدثت بعد اطلاق الحرية فى التصرف قال لى: انها خدعة•• لقد أفقدنا الاستعمار وأفقدتنا العقليات الرجعية الثقة فى أنفسنا حتى ظننا أننا مجموعة من اللصوص ، فى حين أن العكس هو الصحيح تماما فنحن مجمــوعة من المواطنين الشرفاء ، وانساننا لديه كل مؤهلات الثقة ، ولم يحدث اطلاقا منذ أن منحت المستشنــــفيات حرية التصرف فى

ميزانيتها حادثة مخلة واحدة فى حين أن النتيجة كانت أن الروح ردت الى هذه المؤسسات فأصبحت بدلا من الخوف تعمل ، ومن التهرب من المسئولية تتحمل المسئولية ، ومن الشكل المظهرى تؤدى للمواطنين خدمة حقيقية ، انه عمل شجاع ذلك الذى قام به عبد الفتاح فؤاد وهو ليس الوحيد فى أكثر الاعمال الشجاعة التى وجدتها هناك ، واخرها ذلك الذى قام به المحافظ لمقاومة البلهارسيا ..

حقائق رهيبة :

والمواطنون لديهم حساسية من ذكر الامراض ، وخاصة ذلك المرض اللعين ، البلهارسيا ، ان القراء فى المدن لا يهمهم ذلك المرض كثيرا اذ ما دام الواحد منهم يعتقد أنه سليم فما معنى أن يقرأ عن مرض لا يهمه أمره ، ولكن الحقيقة عكس هذا ، فالبلهارسيا تهمنا جميعا كمصريين ، ويكفى أن نذكر حقيقة بسيطة عنها لكى ندرك أهميتها ، فالبلهارسيا مثلا تجعلنا نخسر كل عام ما قيمته ثمانون مليونا من الجنيهات والمواطنون المصابون بها فى ريفنا ينزفون كل عام ما مقداره حوالى اثنين وعشرين مليون لتر من الدم كل عام وكأنها دماء أربعة ملايين مواطن نفقدهم كل عام .. بمعنى اخر نحن لا يمكن مهما صنعنا وأممنا أن نبنى الاشتراكية وأن نضاعف الدخل القومى ونحن نخسر سنويا ٨٠ مليون جنيه وشعبنا ينزف اثنين وعشرين مليون لتر من دمائه كل عام .. والمشكلة الاكبر أننا بعد تحويل رى الحياض الى الرى الدائم ذلك الذى سيبدأ منذ هذا العام ستدخل ديدان البلهارسيا الى الصعيد الجوانى وسيصاب نتيجة لهـــذا أقوى عمال لدينا ، أولئك الذين بنوا عماراتنا ومدننـــا وأولئك الذين يبنون سدنا العالى ولقد ذكر لى صديق أن

السد العالى لو كان يبنى فى وجه بحرى بعمال من بحرى مصابين بالبلهارسيا حتما ، لما أمكن بناؤه ٠٠ فالبلهارسيا تفقد الانسان نصف طاقته وقدرته على الانتاج بحيث لا يمكن لعامل ، حتى لو كان صعيديا من سوهاج ، أن يحمـــل نفس القدر من المونة الذى يحمله كل يوم وأن يصعد به كل تلك السقالات والسلالم

لهذا فالبلهارسيا ليست مشكلة طبية ، وليست مشكلة اجتماعية أو انسانية فقط ولكنها أساسا مشكلة سياسية اقتصـــادية من الدرجة الاولى ٠٠ أهم بكثير فى رأيى من المعادلة الصعبة ، وأهم من الحديث عن الاسراف ، مشكلة وطنية قومية لا بد لها من حل حاسم وحاد وسريع

ولست أعرف ما السبب ولكننا تعودنا أن نظل نترك المشاكل تعالج نفسها لا نحاول أن نبذل لها من تلقاء أنفسنا حلا حتى تلتفت اليها الدولة بكل ثقلها ، وصحيح أن الحل النهائى لمشكلة البلهارسيا والامراض المتوطنة بشكل عـام مسألة تحد حضارى وانتقال المجتمع من مرحـلة أدنى الى مرحلة أعلى ، ولكن هذا الانتقال نفسه لن يتم الا بالقضاء الجزئى على عدونا المرض الاول : البلهارسيا ، ولهذا فمن واجبنا كدولة وشعب وأساسا كما قال مرة الرئيس جمال عبد الناصر كاتحاداشتراكيأن نعلن الحربعلىالبلهارسيا٠ ان الصين استطاعت بواسطة حزبها أن تقضى ليس على البلهارسيا ٠٠ وانما على الذباب تمـاما فى أكبر دولة فى اسيا ، فمسألة القضاء على الذباب أو محو الامية ليست عملا اصلاحيا أو اجتماعيا ٠٠ انه عمل سياسى وحضارى من الدرجة الاولى ، ولهذا فلو حشد الاتحاد الاشتراكى قوى لجانه حول مشكلة متبلورة ــ كمشـــكلة البلهارسيا ــ لأمكن حتى للوحدة « العقائدية » أن تتم ربما من خـــلال مزاولة تجربة كتجربة حشد المواطنين وتوعيتهم لمنعهم من

تلويث الترع والمجارى المائية فالانسان كما يقول الدكتور أحمد الجارم سكرتير جمعية مقاومة البلهارسيا ، هو الذى يعدى القواقع ، أى هو الذى يتولى بنفسه عدوى نفسه واصابتها ، والقضاء على البلهارسيا معناه ببساطة أن نمنع انساننا من القضاء على نفسه وعلى غيره من المواطنين

أغرب مؤتمر :

فى الساعة السابعة مساء والجحيم المضىء بالنهار قد تحول الى جحيم مظلم ، أو بسبيله الى الاظلام ، انعقد فى قرية بنى عبيد ، احدى قرى محافظة المنيا ، مؤتمر شعبى بحضور وزير الصحة ومحافظ المنيا ونقيب الاطباء والدكتور أحمد حافظ موسى أستاذ طب الامراض المتوطنة ووكيل جمعية مكافحة البلهارسيا لمناقشة أخطر مشروع تبنته المحافظة والمنطقة الطبية لتطبيقه فى خمس قرى لاستئصال البلهارسيا منها • صحيح كانت هناك الهتافات التقليدية مثل أى مؤتمر سياسى ولكننى فرحت أن يحتشد لمناقشة البلهارسيا كل هذا العدد من المواطنين الفلاحين أبناء القرية والقرى المجاورة ، وليس هذا غريبا فقد ذكر لى الدكتور ابراهيم يس عوض ان عدد المترددين على وحدات البلاد بلغ ٩٠ فى المائة من المواطنين وهى نسبة عالية جدا لا يمكن أن تخطر على البال فالتردد على الوحدات أو المستشفيات من تلقاء النفس ودون قسر أو ارغام مسألة ليست سهلة فى ريفنا ولكن الفلاح يدرك بغريزته أن الدم الذى ينزفه كل يوم مسألة خطيرة لابد من ايقافها وهو يرحب بكل جهد يبذل فى سبيل علاجه والمحافظة على صحته • ان المشروع يتلخص فى علاج المرضى ، ومنع العدوى ، وصحيح أن أحد تلك الاجراءات هو اقامة حمامات سباحة ليعوم فيها أطفال القرية ولكننى أرى أن هذا الاجراء مضحك الى حد ما ، اذ

لم أستطع أن أمنع نفسى من الابتسام وأنا أرى حماما تكلف ألفين من الجنيهات فى قرية ، ولكنها كما ذكر لى الدكتور أحمد حافظ موسى مجرد تجربة ، أعتقد شخصيا أنها لن تنجح ، فالحمام صغير « ١٠×٤ أمتار » والاولاد يفضلون الترعة حيث يمكنهم السباحة دون عائق ثم اننا لن نستطيع خلال العشر أو العشرين سنة القادمة أن نوفر ألفين من الجنيهات لكل قرية لنقيم فيها حماما للسباحة وأولى بنا أن ننفق نصف هذا المبلغ أو ربعه على عملية توعية المواطنين أنفسهم وجعلهم يتولون بالوعى حراسة مائهم من أن يلوثه طفل أو مريض ، ولكنها تجربة أعتقد أنه أولى بنا ألا ننتظر نتائجها وقد آن الاوان لنلتفت بكليتنا الى دمائنا التى تنزف وأكبادنا التى تتلف وبطون مواطنينا التى تنتفخ ، وأورام السرطان التى تصيبهم ، اننى أضع أمامنا كشعب وكاتحاد اشتراكى هدفا محددا وسريعا أن نقوم بحملة واسعة النطاق ضد البلهارسيا وأن نتولى القضاء عليها فى عام أو عامين ، وقد يبدو هذا اسرافا فى الخيال ولكن الحقيقة المذهلة أن البلهارسيا وغيرها من الامراض الطفيلية هى الامراض الوحيدة التى يمكننا القضاء عليها تماما بارادتنا فقط ، بمجرد ارادتنا أن نقضى عليها ، فكيف نتردد فى هذا ، كيف نعتبر كارثة القطن التى خسرنا فيها ٧٠ مليونا من الجنيهات كارثة لا زلنا نندبها فى حين أننا نخسر كل عام وبتهاوننا أكثر من ثمانين مليون جنيه ، كل الفرق أننا لا نشعر بها ولا نحزن من أجلها

تعلموا ..
كيف تصبحون عربا

سمعت وقرأت أن كبار مطربينا وملحنينا بدأوا يفكرون في الخروج من النطاق المحلى الضيق (أى النطاق العربى) الى النطاق العالمى الواسع وذلك بترجمة أغانيهم العربية وأدائها بلغات أوربية

والغريب أن تصدر فكرة كهذه عن أناس مفروض أنهم أكثرنا معرفة بالغناء والموسيقى ، اذ فاتهم أن الغناء ليس كالادب أو الابحاث العلمية أو الحديث اليومى معان ممكن ترجمتها الى لغة أخرى ، الغناء لغة فى حد ذاته ، لغة مثلها مثل اللغة المكتوبة مستمدة من تاريخ كل شعب وملايين العوامل التى أثرت فى تكوينه · كل الفرق أن اللغة المكتوبة ترسم على الورق واللغة المغناة تؤدى بالآلات والحناجر ، وكما أن من المستحيل ترجمة حرف الضاد الى أى لغة أخرى فكذلك من المستحيل أن نترجم أى حرف من حروفنا الصوتية الى أى لغة أخرى · مستحيل كاستحالة ترجمة الجبة والقفطان مثلا الى ملابس أوربية ، واستحالة أن نترجم اسما (كبهية) الى الفرنسية ، اذ حتى لو فرضنا جدلا أننا وجدنا الكلمات التى نترجمه بها فهل الاثر الذى يحدث للفرنسيين لدى سماعه ، ممكن أن يشبه من

قريب أو بعيد الاثر الذى يحـــدث فينا لدى ســـماعنا .
(يا بهية وخبرينى ع اللى قتل يس) ؟

***

نحن عرب والانجليز انجليز لان لنا خصـــائصنا ولهم خصائصهم • وغناؤنا أحد خصـــائصنا ، ولا يمـــكن أن نصبح عالميين بترجمة خصائصنا العربية الى خصـــائص انجليزية ، لاننا بهذه الترجمة نلغى خصـــائصنا ، نلغى كياننا ، ولا يمكن أن نصبح عالميين ونحن بلا كيان تماما كالزنجى الذى يسلخ جلده ويركب لنفســـه جلدا أبيض ليصبح عالميا ، فتكون النتيجة أن يصبح مسلوخا مشوها• الاغنيه الهندية لم تصبح عالمية لانها ترجمت ولكن لانهـا ظلت عريقة فى هنديتها • والعالم كله يحبها لأنها هندية ، ولانها مؤداة باللغة الاردية • بل الاعجاب يبلغ بها أحيانا حد أن يحفظ الناس كلمـــاتها ويرددوها وهم لا يفهمون معناها ••

اذا أردتم أن تصبحوا عالميين فتعلموا كيف تصـــبحون عربا ، ازدادوا محلية وقومية تزدادوا عالميـــة ، كفوا عن الجرى وراء الشكل الاوربى السطحى وغوصوا فى أعماقنا نحن أكثر ، لتعبروا عنا أكثر ، لتغنوا آمالنـــا وأحزاننـــا وحبنا بعمق أكثر وبأشكال من صميم كياننا ، افعلوا هذا نتول نحن رفعكم أكثر وأكثر حتى يراكم العالم كله

هل الفن حرفة الشواذ ؟

بعض الناس يأخذون الفن بسهولة ، ويعتبرونه حرفة أخرى مثلا او نوعا راقيا من التخريف والتهريج ، كل ما فى الامر اننا نطلق عليه أسماء براقة مثل الخلق والابداع ، ونحيط الفنان بهالة تعطيه مظهر العلماء والمفكرين . وانا نفسى يراودنى هذا الاعتقاد أحيانا . ولكن ، بين كل حين وحين ، يصادفنى حادث ، أو أقابل انسانا واذا بى ارتد بسرعة ، وأدرك مذهولا ان الفنان حقيقة انسان خارق للعادة ، وان الفن حقيقة ابداع عمالقة وخالقين

من هذا النوع حادثان هامان وقعا لى ، وبالصدفة كان بطلهما شخصا واحدا ، ولحسن الحظ انه معروف مشهور . الحادث الاول وقع من ثلاث سنوات حين قررت فرقة المسرح القومى أن تمثل لى روايتى « جمهورية فرحات وملك القطن » كان الاستاذ فتوح نشاطى المخرج قد أسند دور فرحات للممثل فاخر فاخر ، وكانت أول تجربة لى فى المسرح ، وكنت غير مهتم بها اهتماما جديا أول الامر ، ولكن بمضى الايام والبروفات بدأت أحيا التجربة بكل كيانى ، وبدأت أعصابى تدق فى انتظار الافتتاح . وتصوروا مبلغ الصدمة التى تصيبنى حين

أذهب الى المسرح قبل عرض الرواية بيوم واحد فأعلم أن والد فاخر قد توفى ، والد البطل الذى يحمل الرواية كلها فوق كتفيــه ، والدور كوميــدى ، وحفظه واستيعابه مسألة لا يمكن أن تستغرق أقل من اسبوعين

كانت معرفتى بفاخر لا تتعدى حدود علاقة مؤلف الرواية بممثلها ، ولكنى كنت قد فقدت أبى أنا الاخــر من شهور قليلة ، ولا ازال أحيا بآلام فقده .. ولم أبحث عنه لأعزيه فقد كنت على يقين أنه سافر الى البلدة ليحضر المأتم ويتقبل العزاء ، كل ما فعلته انى ذهبت الى الاستاذ أحمد حمروش مدير الفرقة وطلبت منه تأجيــل عرض الرواية الى أن تندمل جروح فاخر البطل . ولكنى فوجئت به يؤكد لى أن فاخر لم يسافر ، وانه هو شخصيا وزملاءه الحوا عليه أن يذهب ولكنه رفض رفضا باتا واصر على أن يبقى حتى يتم عرض الرواية فى موعدها . ولم أصدق حتى وأنا أحادثه بالتليفون ، وقلت له لعله يحــزن لفقــد أبيه مثل حزنى لفقــد أبى ، ولكنى وراء الكواليس ليلة الافتتاح قابلته ، كان صــوته مبحــوحا ، وكانت عيناه محتقنتين ، والسواد يغمره ، وعرفت أننا كلنــا أمام فقد الاباء والامهات سواء ، حتى لو بلغنا السبعين ، نحن نحزن عليهم بأمر مما يحزن به الصغار

وعصف بى الضيق ، لمحنة الرجل من ناحية ، ولمحنتى الخاصة من ناحية أخرى ، محنتى التى سأواجهها حالا حين يرتفع الستــار الذى يفصلنى عن جمهــور مترقب متحفز « اذ كانت الليلة التى يدعى اليها النقاد » صحيح طالما قرأت فى المجلات أن بعض ممثلينا اجتازوا محنا كهذه وهم على خشبة المسرح ، واضحك بعضهم الجمهور بينما كان يعانى من فقد ابن أو أب ، ولكنى كنت أعتقد أن أشياء كهذه ، كلام مسل لا يصلح الا للقراءة فى المجلات . فدور

فرحات دور صعب ، والسيطرة عليه عمل شاق لا يمكن أن يقوم به الممثل الا وهو بكامل قواه وموهبته ومزاجه

المفاجأة

اعتقدت ان الرواية « طارت » تماما ولم أعد آبه لأى شيء ، فقد فتح الستار ، وبدأ فاخر يتكلم ، وخرج صوته ضعيفا مشحونا بالتأثر والالم ، وانهرت على قطعة اكسسوار وانا ألعن الليلة والمسرح والانانية التى تدفعنى لأن إطلب من انسان فقد أباه بالامس أن يضحك لى بروايتى جمهورا خالى الهم والبال ، ولكنى لازلت للان لا أعرف ما حدث بالضبط ولا كيف حدث ، فلقد أفقت فوجدت المسرح يضج بالضحك ، وما كاد هذا يحدث حتى وجدت فاخرا لم يعد فاخرا الذى كنت أعزيه من هنيهة ، كان قد أصبح فاخرا آخر ، فرحات الحقيقى كما تخيلته، بل شيئا اكبر من فرحات ، فى الواقع كان قد أصبح كل شيء على المسرح و فى الصالة ووراء الكواليس وحتى داخل نفسى . لو طاوعت انفعالى ساعتها لبكيت كالاطفال ،ولكنى تحاملت ، ومضيت أتفرج وقد نسيت الرواية ، والموقف ، ولم يعد أمامى الا هذه المعجزة التى حدثت وخلقت من الكائن الحزين هذا الفرحات الذى يعيشنى ويبهرنى

آية قوة جبارة استطاع بها فاخر ان يتحول هذا التحول ، وينتقل بها من انسان لانسان ، تساؤل ظل أياما كثيرة يحيرنى

أخيرا قلت لنفسى : لماذا لا يكون السبب هو الفن ، لماذا لا تكون المعجزة هى فى قدرة الفنان الخارقة على الاخلاص لعمله . لماذا لا يكون « الفن » هو « قمة الاخلاص » لاى عمل ، مهما كان نوع العمل

لا يصدقه العقل

الحادثة الثانية وقعت بالامس • كلنا لابد قد قرأ عن مرض فاخر الاخير وارساله للعلاج فى لندن على نفقة الدولة . أنا الآخر قرأت عن هذا ، ولكنى بينى وبين نفسى لم أكن أعتقد أبدا أن حالته تستدعى ارساله للندن للعلاج أو عمل عمليات جراحية ، فالذبحة الصدرية معروفة ، يمرض بها الآلاف فى بلادنا ، ويعالجهم أطباؤنا ببراعة لاتقل بأى حال عن براعة الاطباء فى الخارج ، والعلاج معروف حتى لغير الاطباء ، بضعة أدوية توسع الشرايين والراحة التامة

بنفس هذه الروح قابلت فاخر بالامس بعد عودته ، وكان اللقاء حافلا خاصة حين طلبت منه أن يشرح لى بالدقة والتفصيل كل ما حدث من لحظة أن غادر أرض الوطن . وبطريقته الخاصة فى الحديث مضى يذكر لى كل كبيرة وصغيرة • حتى مبانى مستشفى « هامر سميث » وصفها ، وجودوين عالم الامراض الباطنية ، وكليفلاند الجراح وحتى التمرينات الرياضية التى أجريت له عقب العملية لم يفته منها شىء . والحقيقة ان ما رواه لى أزعجنى ، وحين اطلعت على التقرير الطبى عن حالته انزعجت أكثر ، فالعملية التى أجريت له « استئصال العصب السمبتاوى من الجهتين » عملية خطيرة جدا خاصة اذا استؤصل العصب من ناحيتى الصدر مرة واحدة ، بحيث لا ينجو منها الا اثنان مثلا أو ثلاثة من كل خمسة . ولم يكن هذا بالضبط هو سبب انزعاجى ، السبب ان التقرير ذكر أن العلاج بالادوية والعقاقير كان يكفى وحده لشفاء المرض ، ولكن العملية أجريت تحت الحاح المريض واصراره وبعد أخذ اقرار عليه بأن

المستشفى غير مسئول عن النتيجة

وقلت لفاخر منفعلا : لماذا لم تكتف بالادوية والراحة وعرضت نفسك لهذه العملية الوعرة

فقال : أمال أنا كنت مسافر ليه . ماهنا الدكاترة قالوا لازم أستريح . وماقدرتش

كنت أرقد أسبوع واللا أسبوعين . وبعدين ارجع امثل تاني فأصاب بنكسة . أنا كنت عايز علاج باتر بحيث يشيل حكاية الراحة دي ويسمح لي بالتمثيل على المسرح

قلت مذهولا : يعني أصريت على اجراء العملية الخطيرة دي بس عشان يسمح لك بعدها انك تمثل

قال ببساطة وكأنه لا يدرك خطورة ما يقول : أيوه

قلت باستنكار : اسمح لي ده جنون . . كان ممكن تموت ببساطة

قال : اسمع . . الاعمار بيد الله . . وتفتكر ايه فايدة انى أعيش من غير ما اقدر أقف على خشبة المسرح . . دانا حتى جيت بسرعة علشان أدخل المسابقة

ألم أقل لكم ان الفن هو قمة الاخلاص ، أتعرفون قمة اخرى للاخلاص لاى عمل ، قمة أخرى غير تعريض النفس للموت المعقم ، الموت الذى لا يزال هناك جرحان طويلان رهيبان يمتدان بطول ظهره وكأنهما آثار أظافره البشعة ، تعرض لهما فقط لكى يصبح باستطاعته أن يمثل ، أهناك قمة أخرى ؟!

"الراهب" والمسيح المصري ،

والاجراس لا تزال تدق احتفالا بأعياد الميلاد ، والاماني تداعب الصدور ونحن على أبواب عام جديد يخرج علينا الدكتور لويس عوض بمسرحيته الاولى « الراهب » فينقلنا بأستاذية وبراعة الى عالم غريب جديد تماما لانه قديم تماما ، قدما كامـلا .. من اللحظات الاولى التى بدأت أقرأ فيها المسرحية وجدت شعورا فياضا يجتاحنى ، نفس الشعور الذى راودنى حين زرت مقابر الفراعنة فى الضفة الغربية للأقصر ، ووجدتنى بعد بضعة أمتار قطعتها فى الدهاليز الرهيبة التى نحتهـا أجدادنا بعنـاد واصرار منقطعى النظير فى باطن الجبل وقلب الصخـر وأقاموا داخلها عالما كاملا على أمل أن يصحو الميت ليحيـا فيه .

بنفس الرهبة والاندهاش والتوجس مضيت أقرأ مسرحية أستاذنا الدكتور لويس ، وشيئا فشيئا أحس أنى أغوص فى بطن التاريخ وأمتزج امتزاجا وجدانيا كاملا مع مصر القديمة التى تحاول أن تجد ذاتها بين مصر الرومانيـة ومصر المسيحية ومصر الوثنية ، تحـاول أن تجد مصر المصرية . بست ساعات قضيتها أقرأ ماخوذا (بالجو) أكاد لا أرى من خلاله شيئا ، ثم بعد أن بدأت أتبين وأخرج من

دوامة الغرق فى عشرات الاســـــماء والمواقع والمواقف والتفصيلات الى الدرجة التى لا أستطيع فيها التمييز بين أبو نوفر الراهب البطل ولوشيوس دوميتيوس دومتيانوس لشهير بآخيل وزوستيكان وأفريكان وديوجين . الى ان انتهيت وأسدلت اخر ستار ، وبعدها وقعت فى الحـيرة العظمى

فالراهب عمل مسرحى عملاق ومن صنع أستاذ ، بحر متلاطم الامواج بالاحداث والمواقف والاقوال يرتفع احيانا الى ذروات شكسبيرية ويغوص فى أحيــان الى رمزيات برخت ، فى أحيان (ابسنى) عقلانى محض وفى أحيان وجدانى بدنى (تنيسى) ، ولكن المشكلة ليست فى هذا ، المشكلة الحقيقية هى فيما يهدف اليه لويس عوض بهذه الارتدادة الفنية العملاقة . لقد عودنا كتاب المسرح الكبار حين يرتدون الى التاريخ أن يفعلوا هذا لكى يناقشوا مثلا مشكلة معـاصرة فى ثوب تاريخى أو لكى يفسروا واقعـة تاريخية على ضوء جديد أو لكى يمجدوا بطولة نسيهـا التاريخ وداستها عجلاته فى المسرحيات . وأشهد انىحاولت بكل جهدى أن أعثر فى قراءتى الثانية للمسرحية على رمز كامل محدد فلم أوفق ، كلما أمســكت بخيط وقلت ان المؤلف لابد يقصده تولى المؤلف نفسه افلات الخيط من يدى وناولنى خيطا آخر لا يلبث أن يضيع واشهد أنه كان يقدم لى خيوطا كنت أحيانا ارفضها وأرفض تصديقهـا وأرفض أن تكون وجهة النظر الضيقة تلك صادرة عن استاذ أومن أن صدره يسعنا جميعا وخلق من أجلنـــا جميعا فالكاتب حين يكتب يصبح اكثر انسانية ورحابة من الكائن الانسانى العادى الذى يحيا بيننا .. ولويس عوض فى حياته العادية انسان رحب مثقف مستنير ، بل يكاد يكون قديسا وبعض الخيوط التى رفضتها لا يمكن

ان تكون أبدا من صنع قديسين

وشيء آخر أحب أن أضيفه ، ثمة وجهة نظر تبدو فى مؤخرة الصورة الشاملة الكاملة لمصر تحت حكم الرومان .. ثمة محاولات تدل على طموح مصر والمصريين الى السيطرة على الدولة الرومانية كلها ، ومن ثم حكم العالم، ثمة محاولات تكاد تشير الى أن من مصر نبعت المسيحية وسقط شهداؤها ، بل يكاد الدكتور لويس عوض يقولها صراحة على لسان أبا نوفر الراهب فى هذيانه : يا الهى .. لماذا نزلت فى بنى اسرائيل ولم تنزل فى هذا الوادى المقدس .. محال أن يكون المسيح يهوديا .. الله نزل فى مصر .. الله نزل فى مصر

وكأن الدكتور لويس عوض قد عز عليه هذا ، فآثر بعد عشرين قرنا من ميلاد المسيح أن يعيد صياغةالتاريخ .. ويقدم لنا مسيحا آخر فى شخص الراهب أبا نوفر ، مسيحا مصريا يبشر بالعدل فوق الرحمة ، مسيحا يحكم ديسوس ثم فى النهاية يصلب نفسه بالسم لانه ، كالبشر ، اخطأ ، وكالبطل الدرامى يحب أن يكفر عن خطيئته بالموت ؟ !

أم أراد استاذنا الدكتور أن يولى وجهه هذه المرة عبر البحر الابيض ويقضى على خرافة الشرق ويثبت اننا عمود من أعمدة الحضارة المسيحية الاوروبية بل نحن أصل هذه الحضارة ، أو كما يقول الامبراطور قسطنطين الرومانى فى المسرحية : لن اعود اليكم حتى أجلس على عرش أبى كونستانس النبيل وأحكم بالحق والعدل من بريطانيا الى اسبانيا ، واسترد عرش روما الذى اغتصبه السفاح مكسيميان ، ثم أطرد العبد دفكانوس من بيزنطة المجيدة عرش أمى القديسة هيلانة المصرية وبعد أن أوحد العالم تحت صولجان واحد أنقل عاصمة ملكى الى الاسكندرية ،

والبس تاج أجدادى الفراعنة

حيرة شديدة توقعك فيها هذه المسرحية الخطيرة ، قد تقبل رموزها وقد ترفضها ولكنك أبدا تحتـــرم كاتبهـــا وتغتفر له هذه المؤخرة التاريخية الاكاديمية التى لم أجد لها داعيا على الاطلاق ، تحترم كاتبها وتحس أن دافعـــه لكتابة ما كتب ، مثل رائع بطله الراهب الذى اتخذ مصر عقيدة وايمانا وجعل من نفسه مسيحها الأحق .. دافعه هو حبه الشديد لمصر .. حب أقوى من الموت وأقوى من الحياة وأقوى من الفن والفكر .. اذ هو حب يدفع الدكتور لويس ويدفعنا لان تصبح هذه الغايات كلها وسائل لتجسيد ذلك الحب وفرضه والتبشير به

الرجـــل والمثـــل

لاشك أن الادب العربى خسر فى العقاد كاتبا عملاقا ساهم فى نقل العقلية الادبية العربية من عصورها المظلمة الوسطى الى العصر الحديث بعلمه ونوره وادراكه . كان الادب العربى قبل العقاد وعميد الادب العربى الحديث طه حسين يعتمد على اللفظ فأصبح له معنى ، وكانت قدرة الكاتب تقاس بمقدار ما حفظه ويستطيع تطبيقه من الفية ابن مالك فأصبحت قدرة الكاتب تقاس بما يستطيع اثارته فى العقل والوجدان . ولقد حاول العقاد أن يلعب نفس الدور فى الشعر فارتطم بشوقى ، بآخر أجيال المدرسة الشعرية القديمة ، كما ترتطم مدارس الغناء الآن بأم كلثوم ولم يستطع العقاد أن يهدم شوقى ولكنه استطاع أن يهدم الاسس التى قام عليها شعر شوقى وهكذا انتقل شعرنا من الكلاسيكية الى الرومانسية

وكان العقاد أول كاتب عربى يدرك أن الادب ليس حرفة وان الاديب ليس عمله أن يقرأ كتب الادب واللغة فقط انما الاديب موسوعة علمية أدبية انسانية متحركة وهكذا ثقف العقاد نفسه ، بل بالغ فى هذا حتى احترف القراءة احترافا وبذلك ضرب للجيل الذى تلاه مثلا ، وأصبحت « الثقافة العامة » هدفا فى حد ذاته من أهداف الكتابة

والكتاب .. واعترف انى لم اقرأ كل ما كتبه العقاد ، ولكن الكتب التى قراتها أثبتت لى أن العقاد المؤلف كان مشغولا طول الوقت بمحاولة اثبات وجوده فى بيئة أدبية ا تكن تعترف له بحق الوجود ، كان مشغولا بأن يتفوق على مدعى التفوق وفى صميم تخصصهم ، مشغولية منعته أن يبلور عمله واطلاعه وتجاربه فى نظرية كاملة متكاملة أو فى رأى يتبناه ويضيف به جديدا ويبشر به

لقد فجعت بوفاة العقاد مرتين مرة لانه مات وتهاوت بموته قمة من قممنا الادبية القليلة ، ومرة ثانية لانه مات دون أن أراه أو ألقاه ودون أن أعرف العقاد الانسان بعد ان عرفت العقاد الكاتب ، بل ربما هذه المعرفة الاخيرة نفسها هى التى حدت بى الى تجنب لقائه ، فقد كان رحمه الله يحمل للجيل الجديد عصا غليظة طالما لوح بها فى وجههم وخطئى الذى لم أدركه سوى الان اننى كنت مثل غيرى أعتقد أنها عصا من سنط وشوك وحديد فى حين انها لم تكن الا عصا الجد أو الاب المشفق دائما ، الخائف ابدا أن يعهد بتركته الى اجيال مهما بلغ علمها فهى فى نظره جاهلة ومهما بلغ عمرها فهى فى نظره غير مسئولة ومهما بلغت قدرتها فهى فى نظره أقل مما يجب ، وأضحل مما يجب

ولقد مات العقاد الرجل ولكن العقاد المثل لن يموت ، سيظل الى الابد حيا فى الأذهان ، العقاد الجرىء المؤمن بقلمه وبرأيه العنيد فى الحق الواثق تماما من دوره وقدرته ، سيظل حيا حتى بعصا الاب يلوح بها فى الوجوه ويحنق ولا يعترف ، حيا يدفع الاجيال المتتالية الجديدة لا أن تحتذى حذوه وتصبح النسخ المكررة منه وانما لكى تصبح نفسها . لكى يصبح كل كاتب عقاد نفسه لكى يبلغ ما بلغ ويعرف ما عرف ويدرس ما درس ويحقق بوجوده ما حقق

الكاتبة البرجوازية
التى لا تؤمن بالتعايش السلمى

ـ أجل يا زميلى العزيز انا سن هوين أو الدكتورة اليزابيث كورانجا كومبر ان شئت الدقة التى اشتهرت عندكم بمؤلفة قصة « روعة الحب » التى لا أعتبرها أحسن ما كتبت فليس أشهر ما تكتبه هو دائما أحسن ما تكتبه . وانا ممن يدعونهم اليوريجينز Eurasians باعتبارى مولدة نصفى أوربى ونصفى صينى ، وانا فى الحقيقة لا أعتبر نفسى كاتبة . أنا طبيبة أطفال اقيم الان فى اتحاد الملايو وأعتبر هناك واحدة من الجالية الصينية الغنية

خذ كلامى اذن على اعتبار انى « بورجوازية » صينية وكاتبة رومانسية كما قال عنى وفد الصين الشعبية فى مؤتمر الكتاب الافريقى الاسيوى ، الذى لم يسمح لى بحضوره الا بصفة مراقبة وزيادة فى الاحتياط اعتبرت نفسى ولا ازال اعتبرها مجرد سائحة . واسمح لى أن أحتج على الاسئلة التى دأب شبانكم الصحفيون على توجيهها الى : ما رأيك فى سارتر وساجان ومورافيا فلقد دأبت على أجابتهم انى لم اقرأ لهؤلاء ولن اقرأ لهم ، فأنتم هنا تهتمون بأوربا اكثر من اللازم وتتابعون اخبارها وكأنكم جزء منها . أتعرف ماذا صدمنى فى القاهرة ؟ أوربيتها

الزائدة عن الحد . لم أكن اتوقع هذا أبدا ، انك من القاهرة لا تحس بأفريقيـا أو بآسيا ، البيـوت والاثاث والمأكل والملابس وطريقة الحديث ، كلها أوربية ٠٠ فقط بعدتأمل دام بضعة ايام اكتشفت انكم من الداخل مختلفون لاتزال أعماقكم سليمة ، وحينئذ عرفت ان الاتجاه الى أوربا اتجاه من السطح ليس الا . ان الحضارة الاوربية ليست سوى أسلوب واحد من أساليب كثيرة للتحضر والحياة ، وان نترك أسلوبنا الاصيل ونتبنى أساليب الغير تبنيا أعمى شيء يضرنا ويمسخنا . لن نكون أنفسنا الا اذا حاولنا بجهد ومشقة أن نكون أنفسنا . انا لم أقرأ لسارتر وساجـان وموارفيا وليس مهما ابدا أن أقرأ لهم ، اكثر اهمية ان أقرأ لكتاب من كوريا والجزائر ومصر ، ولست أقـرأ لهؤلاء فقط كنوع من التحيز الاسيوى الافريقى ولكن أيضا لاتعلم اساليب جديدة رائعة أصيلة فى التعبير الفنى ، فمشكلتنا الكبرى اننا غير واثقين بأنفسنا لا نجد العظمةالا فى كل ما هو أوربى واذا نظرنا الى أنفسنا لم ننظر بأعيننا نحن وانما استعرنا مناظير اوربية نرى بها بعضنا البعض . ان حضاراتنا عريقة جديدة تضرب بجذورها فى بطـون التاريخ ومن واجبنا أن نؤمن ان حاضرنا لا يقل عراقة عن ماضينا وأن تخلفنا فى التكنيك وفقرنا لا يعنى أن أرواحنا هى الاخرى وأحاسيسنا وطـرقنا فى التعبير متخلفة . بعضنا يعتقد أن « العالميـة » لا يمكن الوصـول اليها الا بالتتلمذ على حضارة أوربا واستيعابها جيدا ثم سبقها بعد هذا ، وفى رأيى اننا نفعل خيرا من هذا لو كففنا عن دراسة أوربا والتفتنـا الى أنفسنـا نحن ، الى مشاكلنـا نحن وقضايانا . وارجوك الا تحدثنى وكأنى مواطنة عالميـة حدثنى باعتبارى مواطنة فى اتحاد الملايو الواقع فى جنوب شرقى آسيا والذى يعانى من مشـاكل وقضايا سببهـا

وراعيها الاستعمار الاوربى .. ان مشكلتنا الرئيسية نحن المثقفين فى اسيا وافريقيا ان معظم عقولنا ليست سوى نسخ بالكربون لعدة كتب أوربية الى درجة أن بعضهم يعتبر الجهل بالثقافة الاوربية جريمة كبرى فى حين ان الجريمة الاكبر أن تكون جاهلين بثقافتنا نحن وانفسنا . لندع اوربا ومشاكلها تنتظر قليلا ونشغل انفسنا بأمورنا ومشاكلنا . الجريمة الكبرى ان يكون المواطنون فى آسيا وأفريقيا يعرفون أدق وأحدث أخبار مارلين مونرو وتفصيل ما حدث فى افتتاح مسرحية ساجان الاخيرة بينما هم لا يعرفون شيئا عن الدكتور اجوستيفو نيتو . أتعرف من هو نيتو هذا ؟ انه قائد الجبهة الوطنية التى تحارب الاستعمار البرتغالى فى معركة انجولا التى لا نسمع عنها سوى أقل القليل . هذه هى مأساتنا . وخذنى مثلا لقد جئت الى القاهرة أحمل معى مشكلة حادة ملتهبة هى مشكلة الساعة فى آسيا بجنوبها وغربها وشمالها وشرقها . مشكلة التعايش السلمى الذى ينادى به الاتحاد السوفييتى . أتوافق عليه ؟ أترى ان من الممكن أن تتعايش دولة عمال وفلاحين مع دولة تعادى العمال والفلاحين ؟ هل بالامكان أن يتعايش الاستغلال مع الاشتراكية ، أم لابد أن يستمر الكفاح ولا يهمنا شيء ، حتى تتحرر كل المستعمرات وحتى تتحقق الاشتراكية

أرجوك ، هذا مجرد رأيى الخاص باعتبارى «بورجوازية» و « سائحة » وليس لى أى اعتبار آخر . هكذا قرر مؤتمركم . هذا رأى الصين الشعبية أيضا .. هذا صحيح وانا لا أخفى تعلقى بالصين الشعبية وبسياستها رغم كل شيء ، رغم ما تقاله انت من أن الوفد الصينى أصر على عدم الاعتراف بى كعضوة فى المؤتمر باعتبارى بورجوازية رومانسية . أنا بورجوازية رومانسية ولكنى لا أومن بنداء

التعايش السلمي بين الظلمة والظالمين ، بين ايريان والاستعمار الهولندى وأنجولا والاستعمار البرتغالى والصين الشعبية وشيانج كاى تشيك . اشرب قهوتك قبل أن تبرد وقل لى رأيك ، اريد ان أعرف رأيك فقد جئت هنا لاعرف آراءكم وافهمها واتعلم منكم . اليوم بالذات ذهبت لمقابلة شيخ الازهر لانى أريد أن أدرس الدين الاسلامى العظيم واعرف جوهره ومبادئه فهم عندنا فى جنوب شرقى آسيا يستغملونه كسلاح ضد الوطنية والاشتراكية ، مع أن دراستى العامة له أقنعتنى ان مبادئه تبشر بالعكس وتقف تماما مع حرية الشعوب وحقها فى الحياة الكريمة ، ولم اعجب حين عرفت ان الرجعية العربية المتعاونة مع الاستعمار فى بلادكم تستعمل دينكم العظيم بنفس الطريقة وكأنها خطة استعمارية واحدة . الم اقل لك ان الاستعمار يرانا كوحدة ككل ويستعمل لمحاربتنا نفس الاسلحة ، ونحن نترك قضايانا الاساسية ونتعبد فى أوربا ونتنسم أخبارها ونحلم ..

قصة بطلها
توفيق الحكيم

أمس كنت أقلب فى كتبى واذا بى أعثر على كتاب « مسرح المجتمع » لتوفيق الحكيم · والكتاب ضخم ومجلد بغلاف فاخر وكان ثمنه أكثر من جنيه .ومع هذا فقد تلقيته كهدية من الاستاذ توفيق الحكيم . فتحت الصفحة التى كتب فيها الاهداء وقرأت كلماته وكدت أضحك

فالاستاذ توفيق الحكيم ليس حريصا فقط على نقوده وكتبه ولكنه حريص أيضا على كلماته فهو يهدى كتبه الى قلة قليلة جدا ،.وينتقى كلمات الاهداء بعناية شديدة وكأن أحدا سيحاسبه عليها ·· وهذا الحرص فى رأيى أحد خصائص توفيق الحكيم التى لا أملك ولا يملك أحد الا أن يحبها . وأنا أحب توفيق الحكيم ، أحبه كانسان .وكفنان واحب كل ما يكتبه ، حتى هذا الذى لا يعجبنى أحبه واحس انه شىء لابد منه . أحس انه الظلال الغامقة التى لا بد منها لكى تتكامل لوحة توفيق الحكيم الرائعة

بل حدث مرة انى من كثرة حبى له واعجابى به فكرت أن أؤلف عنه قصة ليست قصة تصور مكانته الادبية ، أو تجسده حيا كامل القسمات ، ولكنها قصة حب ، قصة من القصص التى يحلو لنا أن نؤلفها عن الناس كتعبير غير مباشر عن حبنا لهم

وحدث فعلا انى كتبت القصة ، كتبتها لنفسى بلا أية نية لنشرها أو حتى قراءتها لاحد ، ولكنى ذات يوم ، وانا جالس مع الاستاذ توفيق فى ركن هادىء من أركان المجلس الاعلى لرعاية الفنون حكيتها له

وضحك لها كثيرا وقال :

ـ يعنى بقى مالقيتشى الا انا تعملنى البطل

قال هذا وسكت ، ثم ضحك وأردف :

ـ انما تعرف بينى وبينك ماحدش ينفع لها الا أنا . الناس متصورانى كده وانا كده فعلا

وقلت له : اعتقد انها لا تصلح للنشر

فقال : ابدا .. ولازمته ايه .. انما يعنى برضه يعنى وماله .. ماتنشرها

اكمن بطلها انا . هو لازم البطل يعنى يكون عويس والا مجروس

ما احنا برضه ننفع أبطال ، مش كده والا ايه . لا . اذا كنت عايز انشرها

كان هذا من شهور مضت .. وكل شيء بأوان كما يقولون . وهاهى القصة :

الكابوس

تصورت ان الاستاذ توفيق الحكيم صحا من نومه فى الاسبوع الماضى وهو يكاد يختنق من كابوس مخيف . كان جالسا كعادته على قهوته المفضلة فى الاسكندرية لا به ولا عليه ، والدنيا صيف وعصرية ، والجو جميل يغرى بالسرحان او على الاقل بتأمل الحسان ، واذا بأحدمعارفه يطب عليه فجأة .. سلام عليكم . سلام ورحمة الله . اتفضل . قعد الرجل ودون انتظار لصفقة توفيق الحكيم صفق هو وجاء الجرسون .. هات شيشة .. جاب

شيشة . فرد القادم «اللى» وبالكاد جذب أنفاسها وأشعلها واذا بصديق آخر يطب . سلام عليكم .. سلام ورحمة الله .. وقعد . وجاء الجرسون .. تشرب ايه؟ قهوة .. يدوبك شفط شفطتين واذا بقادم آخر جاء وسلم وصفق وطلب ، ورابع وخامس وسادس وعاشر والقعدة تكبر وتكبر والاستاذ توفيق يشرق ويغرب ويتحدث بحماسه المعهود عن الأدب الفن ووكلاء النيابة والمجمع اللغوى وأزمه النقد والنقاد ، ورغم حماسه الشديد فأهم ما كان يشغله فى ذلك الوقت هو الكوب الزجاجى الفارغ الذى يضع فيه الجرسون ورق الحساب اذ كان قريبا جدا منه ، وكلما تضخم عدد القادمين كان ورق الحساب يتضخم هو الاخر ، ودقات قلب توفيق الحكيم تزداد . فهو متأكد طبعا انه لن يدفع كل الحساب ، ولكن وجود هذه الكومة الضخمة من اوراق الحساب قريبة جـــدا منه خطر على أية حال . أو هو على الاقل وضع غير مريح بالمرة . وعلى هذا فطوال حديثه عن الادب والفن كان الاستاذ توفيق الحـكيم مشغـولا بزحزحة الكوب بدفعات خفيفـة غير ملحوظة أحيـانا ، وبنظراته وبعينيه احيانا أخرى حتى تصبح المسافة بينه وبين الكوب مأمونة ، مأمونة بالقدر الذى لا يسمح لأبرد جرسون أن يأتى ويقف على رأسه ساعة الحساب ..

ولكن ساعة الحساب جاءت ، وجاء الجرسون الخواجه بسمنته ، وسترته البيضـــاء المتســخة ، وهليهليته الاجريجية المعهودة ، قائلا : ايوه يا خبيبى الحساب لحسن خلاص ماسيين . ومد يده وتناول الاوراق وظل يحسب كمسه وكمسه أشرة .. ستين ونس .. تسعين — ميه وكمسه

وطبعا كان الاستاذ توفيق لا يلقى للرجل ولا لحسابه بالا كثيرا . فهو كان قد أخذ واحد قهوة بشلن . فقط

كان ينتظر أن يحاول أحد الجالسين دفع الحساب كله فيحتج هو ويصر على أن يدفع حسابه على الطريقة الانجليزية

ولكن أغرب مافى الامر ان الجرسون انتهى من حساب فاتورته ووقف ينتظر الدفع دون أن يتحرك واحد من العشرة الجالسين أو يبدو عليه أنه يهم بدفع الحساب

قال الاستاذ توفيق لنفسه لا بد أنهم متشاغلون ، فلأتشاغل أنا الآخر . وفعلا سرح وسهم، وانتابه ذهول فني حاد وراح يلعب عصاه ذات اليمين وذات اليسار ، آن أحدا من حضرات الجالسين يتحرك من رابع المستحيل . بل حدث ما هو أكثر . الجرسون اللعين اختاره دونا عن بقية الجالسين وتسمر أمامه وأبى أن يتلحلح ومضى يدعى مسح الترابيزة ويوجه لتوفيق الحكيم نظراته الجرسونية المعروفة التى لا تعنى سوى شيء واحد : ايدك بقى ع الحساب

وأحس الاستاذ توفيق الحكيم انه امام مؤامرة خبيثة واسعة النطاق يشترك فيها هؤلاء العشرة الجالسون والجرسون والقدر وتريد دفعه الى أن يتحمل كل هذا الحساب وحده وسواء أراد أم لم يرد

وانتاب توفيق الحكيم غيظ شديد ، لقد كان مستعدا أن يدفع ثمن قهوته مثلا ، ولو احتاج الامر فقد كان مستعدا أن يتحامل على نفسه ويدفع ثمن مشروب آخر ، اما أن يتحمل حساب عشرة أناس لا يعرفهم طبوا عليه هكذا فجأة وطلبوا عشرة طلبات ، ثمن الواحد منها لايقل بالبقشيش عن العشرة قروش برزالة ودون أن يعزم هو أو يطلب ، وتأتى ساعة الحساب فيبلمون هكذا ويجلسون كالجثث المحنطة ، فأمر يفجر الدم من الشرايين

اغتاظ الاستاذ توفيق جدا وأحس بالضيق يكتم

أنفاسه حتى كاد يبكى كالاطفال ويقول : والله مانا دافع

والمصيبة ان المشهد طال وزاد عن حده . الجرسون واقف يتململ ويتمحك ولا يحول انظاره عنه ، والجالسون متشاغلون وكأنهم ليسوا هنا ، وهو محرج حرجا شديدا لاحساسه بأنه مطالب وحده بالدفع ، ويقينه من أن شيئا كهذا لا يمكن أن يحدث حتى ولو شنقوه . والوضع لا حل له ومع هذا فهو مستمر وكأن ثمة قوى كونية غامضة قد اوقفت الزمن عند تلك اللحظة الحرجة وأبت عليه أن يتحرك

وبدأ الاستاذ توفيق يختنق .. الغيظ بدأ يصنع أيديا حقيقية تلتف حول عنقه وتمضى تضغط وتضغط حتى لقد بدأ جسده يتفصد عرقا ، وبدأ يتأزم وينتفض ويحس انه حالا سيموت .. واخيرا جدا ، وبصعوبة شديدة ، بدأ يحس وكأن الروح تعود ، ووجد نفسه يرى ، وكان ما رآه ظلاما ، وحين أوقد النور وجد نفسه فى حجرة نومه حيث لا قعدة ولا جرسون ولا حساب .. ولم يصدق ان ما حدث لم يكن الا حلما مزعجا الا بعد أن قام وتحرك وأشعل النور وأطفأ مرات ليتأكد ، وتأكد حينئذ ان ماحدث كان مجرد كابوس كاد يقضى عليه .. وعلى الفور أحس براحة حقيقية تتصاعد من صدره وانتابه فرح غامر وكأنه اخذ البراءة أو نجا من موت محقق ..

وحينئذ فقط استعاذ بالله من الشيطان الرجيم حتى لا يتكرر الكابوس ، وقرأ آية الكرسى زيادة فى الاحتياط ، وغير الجنب الذى كان ينام عليه وأراح رأسه من جديد على المخدة ثم ابتسم ابتسامة كلها سعادة ونشوة

وفى براءة الاطفال نام

قابلت سارتر في "الكافيتريا"

قاعة « الكونزرت هاوس » فى فيينــا . مؤتمر وناس قادمون من جميع أنحاء العالم ولجان تجتمع وتتخاصم ، وحركة دائبة فى القاعة الكبيرة والمسارح الصغرى الملحقة بها . مدخل القاعة مزين بأعلام جميع الدول والشعارات الزرقاء وملابس الرجال والنساء كأنها كرنفال والوجوه والملامح متحف حى متحرك يعرض صورا للانسان فى كل مكان من قشرة الارض

قرأت اسم سارتر ضمن المشتركين فى المؤتمر ، دخلت اتفرج ، طلبت على سبيل المزاح من سكرتيرية المؤتمر ان اقابله .واعطيت اسمى باعتبارى كاتبا من مصر ، محاولة لم أكن جاداً أبدا فيها ولم أعتقد انها ستنجح ، تركتهـــا وظللت أدور فى المدخـــل والقـــاعة واتفـــرج على الوجوه والاجناس واللفات وأسمع بشغف صوت المذيعة فى اذاعة المؤتمر الداخلية وهى تقول كلمـــا بدات الكلام : اختونج اختونج ومعناها انتباه انتبـــاه . صوتها قوى وعميـــق ويحبب الاذن فى الالمانية . استغرقنى التفرج ومحاولة معرفة ما يدور فى المؤتمر حتى نسيت كل شىء عن سارتر والمقابلة . ولكننى فوجئت بصوت المذيعة الالمانية الحلو ينطق مرة

(*) ٢٠ يناير سنة ١٩٦٠

اسما خيل الى أنه اسمى . بل تأكدت . المذيعة الانجليزية ما لبثت أن قالت : يوسف ادريس يقابل ج . ب سارتر فى الكافيتريا

شملنى اضطراب عظيم وخفت . كنت فى السادسة والعشرين بالكاد نشرت قصة أو قصتين ، مالى أنا ولسارتر العملاق . فكرت فى التراجع ولكنى وجدت نفسى أبحث عن الكافيتريا ، وطال بحثى ولم أتصور أبدا أن يكون مكانها تحت خشبة المسرح مباشرة . سألت الجرسون عن سارتر ، أشار الى منضدة يحتلها رجلان احدهما ضخم أحمر الوجه فاخر الثياب جميل التقاطيع والثانى قصير ، ربع ، أحول ، منظاره من نوع عتيق رخيص .. تقدمت من المنضدة وقلبى يدق ، خفضت رأسى ومددت يدى بعصبية للرجل المهيب وقلت : مسييه سارتر . حملق فى الرجل بهدوء ثم أشار بابتسامة الى الرجل القصير الجالس بجانبه وقال بالفرنسية . هذا هو . الواقع بهت وخاب املى ولم اعتقد أبدا أن رجلا هذا شأنه لو رأيته فى أى مكان آخر لخيل الى أنه مدرس أحياء فى مدرسة اهلية مصرية هو العظيم سارتر . ولكنى سلمت وقدمت نفسى وقال الرجل كلاما فرنسيا كثيرا لم افهم منه الا انه يقول انه سارتر اما الرجل الجالس معه فهو الكاتب الروسى الكبير اليا اهرنبورج ... انقلب اضطرابى الى فزع ، يا لى من أحمق ، أطلب مقابلة على سبيل العبث واذا بى مرة واحدة فى حضرة اثنين من عمالقة الفكر العالمى ، وأجلس معهما ، وألمس أيديهما وأكلمهما ويعاملاننى كزميل لا يفرقه عنهما الا فارق السن !!

وربما الفزع هو الذى دفعنى للاستهتار بالموقف كله ، ودفعنى لخوض مناقشات لا قبل لى بها ، كنت أطمن نفسى وأقول فليكونا عمالقة فى كل شىء ولكنك أنت الآخر

يا ولد تعرف أشياء لا يعرفانها ، على الاقل تعرف الانجليزية التى لا يعرفها سارتر نفسه ، وتعـرف العربيـة التى لا يعرفها اهرنبورج ..

أنا مضطر لان أتخطى أشياء كثيرة جدا دارت وكانت جديرة بالذكر لأصل الى المناقشة . ويالها من مناقشة يحسدنى عليها انيس منصور . أنا أناقش سـارتر فى الوجودية بينما يقوم ايليا اهرنبورج بدور المترجم !

قلت : أنا للأسف لم أقـرأ من أعمالك الا مسرحيـات الحائط ، ولا مفر ، والايدى القـذرة ، ومجموعة قصص قصيرة ..

قال بدهشة ونوع من الفرحة : قرأتهـا .. قرأتهـا حقيقة .. فى القاهرة ! بأية لغة ؟!

قلت : بالعربية والانجليزية

قال : جميل جدا ، هل تهتمون بها لديكم ؟ .. ماذا يقولون عنها ؟ .. وما رأيك أنت فيها ؟

قلت لنفسى : حتى سارتر هو الاخر يصنع مثلنا وينتظر بشغف آراء الآخرين فى أعماله.

وقلت له : اعمال رائعة كلها .. أذهلتنى

قال : ماذا أعجبك فيها ؟

قلت : هل تريد الحقيقـة .. أعجبتنى لما فيها من فن وليس لما فيها من رأى ان فيها فنا مذهلا رائعا هو البطل المجهول المتواضـع الذى يختفى وراء الكواليس ليتـرك الفلسفة والآراء تقف وحدها أمام المتفرجين وتحظى بالمجد والتصفيق ..

انى لأتساءل : ماذا يسعد رجل عظيم مثلك . أن يقراك الناس ككاتب أم كفيلسوف .. ؟

ضحك وقال : أعتقد ان الانسان يسعد لمجرد أن يقرا الناس انتاجه سواء كان فنا أم فلسفة

قلت : اذن أحيانا يكون النعيم هو راى الآخرين ..

وضحك أهرنبورج أولا وحين ترجمها أغرق سارتر فى الضحك اذ أن له رأيا وجوديا مشهورا يقول ان الجحيم هو الآخرين

وجرانى الضحك فقلت : الواقع لو كان وجود الاخرين يخلف التعاسة التى صورتها لقتلنا بعضنا بعضا من زمن بعيد ، لا بد هناك أشياء أخرى لم تذكرها هى التى أبقتنا أحياء فى مجتمع واحد

قال : يعجبنى ان شابا غريبا مثلك يناقشنى بلا حذر أو اصطلاحات فلسفية ، بالتأكيد هناك أشياء لم تعرف بعد

قلت : وقد تغير رأيك اذا عرفت نظرتنا الى الوجـــود والارادة المستقلة •• ؟

قال : وقد تغير . ممكن . ممكن جدا

قلت : لماذا لا نعتبر أى فلسفة اذن مجرد نظرية نتركها تتصارع مع غيرها من النظـريات والاكتشــافات ، بلا تعصب ، ودون أن نحاول أن نقيم من انفسنا محامين لهذه النظرية ومدافعين عنها فالتعصب لهذه الفلسفة أو تلك ممكن أن يعوق وصولنا الى الحقيقة

قال : ولكن الحقيقة لا يمكن الوصول اليها الا بصراع ، والصراع لا يمكن أن يتــم الا بين متعصبين ، فاعتنــاق النظريات والدفاع عنها يقربنا من الحقيقة ولا يبعــدنا عنها

قلت : الصراع بين الوجودية والاشتراكية مثلا يقربنا من الحقيقة .. ؟

قال : طبعــا . . على شرط الا يتــم الصراع فى قلب الشارع . أقصد الصراع بين المفكرين الواسعى الأفق

قلت : مجرد تساؤل قد يكون سخيفا ولكنى أرجو أن يسمح لى به أعظم كاتب اشتراكى وأعظم كاتب وجودى .

الوجودية تعتبر الفرد مسئولا عن اختيـاره وتصرفاته ومصيره والاشتراكية تعتبر المجتمع هو المسـئول ، أليس من المحتمل اذن أن تنشأ فى القريب نظرية ثالثة تجمـع الوجودية والاشتراكيـة وتملأ الفجـوات وتفسر بدرجة أوضح وتحدد بدرجة أدق حركة الفرد بالنسبة لحـركة المجتمع والعلاقة بين الوجود الفردى والوجود الجماعى

تولى اهرنبـورج الترجمـة على دفعات كان يعقبهـا بابتسامات تخيلت أنهـا ابتسامات استخفـاف . ودار بينهما نقاش بالفرنسية .. خفيف ضاحك أول الامر ، ثم شابه بعض الجد والتأمـل فى النهاية . وأخـيرا قال اهرنبورج : صديقى سارتر وأنا مبتهجان لرأيك .. ولكن لا تنتظر منا أن نفكر فيه جديا فالغاء الوجـودية الغـاء لسارتر ، والغاء الاشتراكية الغاء لى فهـل أنت قادم من القاهرة لتلغى المعارك الطويلة التى خضناها وتلغى وجودنا كله بجرة قلم ؟!

الحديث دار فى أحد أيام ينـاير من سنين ، لا زلت أذكره ، ولا زلت كلما أحسست ببرد يناير تذكرت فيينا، وأدق تفاصيل ذلك اللقاء

كامل الشناوى

خطر لى خاطر عجيب وأنا جالس تضمنى تلك السهرة الجميلة التى يعقدها الاستاذ كامل الشناوى فى مكتبه كل مساء

فالاستاذ كامل على الرغم من قلبه الكبير الذى يسع الفن والفنانين جميعا . وموهبته التى تحيل الشعر الى شىء ساحر يخطف الابصار والعقول ، حتى عقول أعداء الشعر أنفسهم ..

وعلى الرغم من انه اروع محدث وأكثر الناس ظرفا ولباقة وكياسة الا انه يتمتع بخاصية غريبة قد لا يصدقها أحد ، ذلك أنه يخاف من الموت . وكلنا نخاف الموت ، ولكن الاستاذ كامل يخاف منه خوفا حقيقيا لا هزل فيه ، خوفا يجعله يعامل الموت كما لو كان عدوا شخصيا له من دم ولحم يتربص به لينتهز الفرصة المناسبة وينقض عليه . وقد يرى البعض أن هذه نقيصة ، ولكن الواقع أن أستاذنا كامل الشناوى احالها الى ميزة كبرى . واليكم ما يحدث

هو لا يستيقظ فى العادة قبل العاشرة ، وأول ما يفعله اذا استيقظ ان يقرأ جرائد الصباح ، ويقرأها بالمقلوب

(*) ٢٢ يونيه سنة ١٩٥٦

بادئا بصفحة الوفيات ليطمئن الى ان كل شىء على ما يرام وان عدوه اللدود الموت لم يختطف أحدا ممن يعرفهم أو له بهم صلة

ولكن معارف الاستاذ كامل كثيرون جدا ، ولهذا فلابد أن يجد أن أحدهم قد مات أو على الاقل يحتفلون بذكرى أربعينه . فى الحال يتولاه انزعاج عظيم ، انزعاج يزوده بطاقات نشاط لا حد لها تجعله يغادر الفراش ويرتدى ملابسه على عجل ويترك البيت ، ولولا شبح عدوه اللدود ما كانت قوة فى الارض تستطيع أن تجعله يغادر الفراش المريح ..

يهبط الاستاذ كامل من المنزل ويتخفف من احساسه بالمسئولية تجاه من مات فيرسل تلغراف عزاء أو باقة زهور ليجنب نفسه مشقة السير فى الجنازة ، يتخفف لانه يعتقد ان ذلك الشخص الذى مات راح ضحية بريئة لعدوه هو ، ولهذا فهو يعد نفسه مسئولا أمام ضميره عن ضحايا عدوه ..

ولا يطمئن الاستاذ كامل الا حين يرى الناس فى الشارع رائحين غادين لا يخطر لهم الموت على بال ، ولكن اطمئنانه لا يطول اذ ماذا يحدث لو خطر ببـال عـدوه البغيض أن ينفرد به وسـط الشارع وهو وحيد بين أناس لا يعرفهم ولا يعرفونه ؟ لابد اذن من البحث حالا عن الاصدقاء ، فبينهم يستطيع أن يطمئن على نفسه . وهكذا ، النائم من أصدقائه يوقظه ، المريض يزوره ، والبعيد يدق له تليفونا . ولابد أيضا من العمل ، فالانتاج هو المصل المضاد للموت . والعمل كثير . عمل فى الجمهورية . وقصائد يلح عبد الوهاب فى طلبها ، ويوميات ، وكتاب بدأه من سنين ولا يريد أن ينتهى . ويبدأ كامل الشناوى يكتب ، ويمسك القلم بيده السمينة الحنونة ويملأ الصفحات ،

يبدأ الكتابة وفى ذهنه الخوف من الموت . ولكنه لا يلبث أن يغرق فيما يكتبه . ولا تخرج الكلمات من قلمه كلمات، بكل شاعريته يملؤها سحرا ومرحا ويودعها روح الحياة وكأنما يتحدى بها خوفه وخوف الناس من الموت

وحين ينتهى يكون المساء قد حل ، فلا يكاد يبدأ يحس بالوحدة ومن ثم بالانزعاج حتى يبدأ الاصدقاء والمعارف والزملاء يتوافدون على مكتبه . ومن تلك الساعة يتحول مكتب كامل الشناوى الى تلك المدرســة الفـكرية التى تدخلها فارغا وتخرج منها مكهربا كالبطارية التى أعيـد شحنها . كامل الشناوى جالس يتحدث ويفكر ويسخر ويناقش ، صوته فيه كل قوة الحياة وجســده فيه كل سخائها وعقله يعمل فى دقة الجهاز الثمين ويخرج الآراء ويلقى بالمقترحات

ومن اختلاف الاراء وتشعب الجدل تتضـح عشرات الحقــائق وتنبت فى ذهن كل كاتب او فنـان ألف فكرة وفكرة ، وينسى كامل الشناوى كل شيء الا انه يزاول أحب عمل اليه ، يتحدث الى أناس يحبهم ويتحدثون اليه ، أحب حديث ، حديث الفن والسياسة والادب

ولكن الليل يمضى ويتسلل الجالسون واحــدا وراء الاخر كالمذنبين تتبعهم سخرية كامل الشناوى وعجبه من قدرتهم الخارقة على النوم المبـكر ، اذ كيف يستطيعون النوم والدنيا مليئة بأجمل شيء فيها ، بليلها

ولكن جلسة المناقشات ما تكاد تنتهى حتى تبدأ جلسة الحلقة الضيقة من الاصدقاء . الموسيقى والاضواء الخافتة وصوت عبد الحليم والمعية عبد الوهاب ، والضحكات ، ضحكات هو محدثها ولولاه ما كانت ، ضحكات يعبر بهـا عن فرحه بالحياة ونشوته بالوجود مع أحباب ، ضحكات ، وكأنما يدرأ بها عن نفسه وعن احبابه وعن الناس جميعا

كل ما تبقى عالقا بذهنه من شبح ذلك العدو المبين الذى طارده منذ الصباح

ويظل الاستاذ كامل محاطا بالاصدقاء الاحبـاء حتى ينام ، وينام وصخبهم وضجيجهم لا يقلقه بل لولا ضجة أصدقائه ما نام وكأنها الموسيقى الحية التى لابد منهـا لينام على وقعها كل مساء

وفى الصباح وبينما القراء يلتهمون ما كتبه ، وبينمـا كلماته يرشفونها أروع مذاقا من قهوة الصباح ؛ بنمـا الاف القلوب والعقول تقرؤه وتحبه وتحب الحياة وتتزود لخوض معركة النهار ؛ يكون الاستاذ كامل يقرأ جرائـد الصباح هو الاخر ، ويكون أول ما يقرؤه فيها هو صفحة الوفيات ، وكالعادة أيضا لابد أن يكتشف أن أحد أصدقائه أو معارفه أو زملائه القدامى قد مات ، ويبدأ شبح العدو ينتصب أمامه ، فيتولاه الانزعاج ؛ ويغـادر الفراش على عجل ، ويسرع ليقذف بنفسه فى بحر الاصدقاء والنـاس والانتاج ، يريد أن يهرب من الموت فيخلق حيـاة ، أروع حياة ، تحبه وتحبب معه الاصدقاء والناس فى الحياة ..

قنطرة الذى كفر

ليلة الامس أمضيتها مع رواية فريدة فى ادبنا العربى كله ، الرواية كتبها أستاذ كبير له فى كل فرع من فروع العلم والمعرفة باع ، ولم أكن الى اليوم اعتقد أن له فى الكتابة ليس هذا الباع الطويل فحسب ولكن الباع الاصيل . لقد ذهلت وأنا أطالع صفحات الرواية القليلة (١٠٧ ص) من القطع الصغير ، قرأت الرواية كملازم خارجة من المطبعة فى جلسة واحترت قليلا من يكون هذا الكاتب العملاق الذى كتب هذا العمل ، فقد دق الباب ، وفوجئت بساع يحمل لى حزمة الملازم وأفتش فى الملازم عن اسم للمؤلف فلا أجد ، لا أجد الا مقدمة صغيرة فى صفحة واحدة مفادها ان الموضوع عاش مع الكاتب ثلاثين عاما وأنه لولا نصيحة من الاستاذ محمد عودة ما كان قد أقدم على كتابته

وحاولت الاتصال بعودة فاذا بعودة فى كوبا مع مؤتمر التضامن ، واذا بى وليس أمامى الا نص من مؤلف مجهول، قرأته فأصبت بالذهول كما قلت ، فهذه الرواية القصيرة هى أروع ما كتب فى رأيى عن ثورة ١٩ اذا نحينا جانبا عودة الروح لاستاذنا توفيق الحكيم والجزء الخاص

بالثورة فى ثلاثية كاتبنا الكبير نجيب محفوظ ، ولكن المشكلة فى هذه الرواية الفريدة انها لا تتحدث عن ثورة ١٩ متعمدة عامدة كما حدث فى عودة الروح وثلاثية محفوظ ، ان الحديث عنها يأتى هكذا تلقائيا ، من داخل نفوس أبطالها ولا يملى عليهم من خارجها ، أو توضع الثورة عن عمد هندسى داخل الرواية . وأبطال الرواية أغرب ، فهم سكان (ربع) من الارباع القائمة فى المنطقة المسماة (تحت الربع) وهم بائع صعيدى سريح (كالشعراء فى حيه) وبنت تخدم فى المنازل وأمها العمياء ، ورئيس كناسين فى التنظيم ونجار وخريج دار علوم لا يجد عملا وفى الوقت الذى تفور فيه البلاد بالثورة هو مشغول بتدبيج قصيدة لرئيس الوزراء الجديد يمدحه فيها ويلعن الوفد كى يرسله فى بعثة لدراسة الفلسفة فى فرنسا ، نفس هذا الانتهازى الوصولى ينتهى بأن يصبح من تنظيم الوفد السرى وينتهى كمكافح ارهابى يغتال الانجليز بالمسدس ، وقصة حب ، أعظم وأروع ما قرأت من قصص الحب الشعبية بين (سيدة) ذات الثمانية عشر ربيعا والتى تبدأ بأن تصب الماء ليتوضأ الشيخ عبد السلام قنطرة خريج دار العلوم وتتسبب فى توهانه عن الصلاة وعن الله وبين أحمد ابن النجار الذى مات بالشوطة وظلت سيدة فى عقدة ذنبها من انها (قرفت) منه حتى انتحرت بثمانين قرصا من الادوية المنومة حين افترسها نجيب باشا عاصم نفس رئيس الوزراء الذى كان يدبج له الشيخ قنطرة قصيدته والذى أرسله بالفعل حين نشرت الاهرام قصيدته فى بعثة الى فرنسا ، عالم غريب رهيب عالم الربع هذا ، وببراعة أصيلة براعة على ما أعتقد مؤلف الرواية الواحدة ،تلك التى تحدث التغييرات الخطيرة فى الادب فى معظم الاحيان يرسم الكاتب صورا غريبة

وكأنما لعالم خاص مسحور ، وكل هذا بلغة عامية لا تحس للحظة واحدة انها عامية أو انها غريبة لا على البيئة ولا على الصور الفنية أدق وأروع ما يمكن أن يصل اليه قلم فنان .

حيرتني الرواية وقرأتها مرة اخرى ، غير مصدق ، وأخيرا تذكرت ان الاستاذ أحمد طه كان قد حدثني في التليفون وأخبرني انه سيرسل لي رواية للدكتور مصطفى مشرفه لأراها وأقرأها قبل أن تنشر ، ومنذ بضع سنوات عرفت الدكتور مشرفه وهو شقيق عالمنا الكبير الذي فقدناه الدكتور علي مصطفى مشرفه ، عرفته للأسف وقد أصابه نوع من الالتهاب المفصلي الذي جمد مفاصله كلها حتى مفاصل فقرات رقبته فأصبح لا يستطيع أن يتحرك أو يتحرك أي جزء من أجزاء جسده وانما هو ينام مستلقيا ليل نهار فاذا عنت له بعض الخواطر أملاها على احد الاصدقاء ، أو على زوجة مخلصة من أخلص الزوجات في العالم على ما أعتقد ، فهي رغم شبابها قد وهبت نفسها تماما له ولمطالبه عارفة مقدرة محبة للعبقرية الكامنة في هذا الجسد الذي أجبره المرض على الرقاد . اني أعرف الدكتور مصطفى مشرفه وأعرف أنه من عائلة مشرفه احدى العائلات (الارستقراطية) في دمياط فكيف يمكن أن يتأتى للدكتور مصطفى أن يكتب عن شعبنا ، عن أقل الدرجات في شعبنا ، بكل هذا الصدق والروعة والجمال ، ان هذا لما يناقض تماما ما ورد في ميثاق المثقفين من أن أصل الاديب ينضح على انتاجه باعتبار معظم الكتاب والفنانين من الطبقة الوسطى وها هو يكتب عن الشعب ، عن أقل الدرجات في شعبنا الكادح بما لا يستطيع أن يفعله عامل أو فلاح حتى لو أوتي ثقافة جوركي وتولستوي

أما قنطرة الذي كفر فهو لم يكفر أو شيئا من هذا القبيل ، وانما هناك وصلة نابعة من درب الجماميز كان

اسمها (قنطرة كفاريللى) وهو اسم عالم صاحب الحملة الفرنسية ، على ما أعتقد ، فقلبها الناس الى قنطرة اللى كفر ثم الى قنطرة الذى كفر ، وحيث أن أحد أبطال الرواية اسمه الشيخ عبد السلام قنطرة فقد جاء الاسم من هنا وجاء ليضيف بعدا سحيقا الى الرجل باعتباره قنطرة فعلا وقنطرة الذى كفر بالثورة ليعود يؤمن بها

ان هذه الرواية على ما أعتقد ستكون حدث عام ١٩٦٦ الادبى ، رغم ان كل عتبى على كاتبهـا انه تعسف فى انهائها ، ربما لاحساسه ان قارئه لن يتابعه . ولو عرف أن القراء كانوا على استعداد لمتابعته لمئات الصفحات لما وضع لها هذه النهاية الحادة التى جارت على مصير بعض أبطالها ، ولكنها ستبقى رغم هذا عملا فريدا لن يتكرر فى أدبنا أبدا

نجيب محفوظ
ومجاعة النقد

لانى أسهر دائما الى ساعة متأخرة من الليل أو فى الحقيقة الى ساعة مبكرة من اليوم التالى ، فانى لااستيقظ مبكرا أبدا ، وانما تأتى يقظتى من التليفون ، ذلك الجهاز الذى تتدفق من خلاله الحياة رغما عنك فتجذبك الى دوامتها حتى من أحلى نومه . ولقد سعدت حقيقة فالمتحدث فى ذلك الصباح كان الصديق الكبير الاستاذ نجيب محفوظ الذى ، بعد ثوان من المحادثة كانت تجلجل ضحكاته فتكاد سماعة التليفون ، تشاركنا ، من فرط الاغراء ، فى القهقهات . والظاهر أنها كانت ممتعة حقيقة فقد استمرت المحادثة ما يقرب من الساعة والنصف . وكان أهم موضوع (جاد) أثاره كاتبنا الكبير عن النقد وحزن نجيب محفوظ لرؤيته كبار النقاد وقد انصرفوا تقريبا عن مزاولة واجبهم الاسمى وتركوا المجال لبعض الصبية الذين فهموا أن عظمة النقد تقاس بمقدار ماينعيه الناقد من فنون ، وبرز هذا واضحا من خلال (تقييمهم) للموسم الأدبى الماضى فتخصص بعضهم فى نعى القصة القصيرة بينما راح الاخر ينعى الشعر الجديد ولولا بقية باقية من الحياء لنعوا الرواية هى الاخرى والمسرحية

وأشعرني حديث نجيب بخطورة الوضع فهو يقول هذا فى وقت تنشر فيه مجلة الكاتب دراسة عن أعماله من أعظم الدراسات الادبية المعاصرة أصالة وجدة يكتبها أحمد عباس صالح ، دراسة تكاد تكون هى العلامة الوحيدة الباقية الدالة على أن الحياة فى الحركة النقدية لا يزال لها بعض النبض ، ولكن نجيب محفوظ لم يكن يقصد شخصه فقط ، أو الدراسات عنه وانما كان يذكر الحقيقة بشكل عام . والحقيقة أن ناقدا كبيرا كالدكتور على الراعى كف عن الكتابة ، بينما أستاذ كبير اخر كالدكتور لويس عوض انصرف الى التأليف أو الترجمة وكف الاهرام الاسبوعى عن متابعة الحركة الادبية كعهده بالنقد والدراسات ، روزاليوسف وصباح الخير اصبحتا تنشران (آراء) وانطباعات ووجهات نظر ومعظمها عن الافلام والمسرحيات . وكأن المسألة قد اصبحت بالاسهل ، وبينما اختفى النقد الايجابى القائم على الكدح الذهنى واعمال العقل للتقييم والاكتشاف والمقارنة ازدهر النقد السلبى الذى لا يكلف الناقد أكثر من سهرة يمضيها فى مسرح أو أمام شاشة تليفزيون أو سينما ، والصفحة الادبية لجريدة الجمهورية تعتمد على مساهمة الكتاب من خارجها وبالتالى فانها لا تقدم مادة نقدية مبنية على أساس من العمد والخطة ، الاستاذ محمود أمين العالم فى المصور والاستاذ رجاء النقاش فى الكواكب يكادان يكونان وحدهما القائمين بمهمة متابعة الانتاج الادبى بالنقد والتقييم ، متابعة أسبوعية لا تتيح لهما فرصة دراسات أعمق فحركتنا الادبية قد نضجت فى انتاجها الى حد أن بدات تتكون مدارس ومفهومات .. بدأت رواية جديدة تظهر ، وقصة قصيرة جديدة ، ومسرحية حديدة ، وأشكال مختلفة فى الشعر الجديد ، بل لدى الكاتب أو الشاعر

الواحد بدأت تتجمع خصائص وتتكاتف لتكون مرحلة أو انتقالا ، هناك محصلة قوى بطبيعة الحال وكلمة ما تريد الحركة الادبية الحديثة حبا فى النهاية أن تقولها ، فما هى تلك الهجرة الى التاريخ فى المسرح حتى راينا ثلاث مسرحيات متتابعة لثلاثة كتاب مختلفى النزعات تعود القهقرى الى التاريخ وتحوم حول فترة تكاد تكون واحدة هى عصر المماليك ، ما سببها ، ما أصلها ، ومعناها وفصلها، وهل هى علامة صحة أم علامة مرض ، وما العلاج ؟

نفقد ولا نحظى بجديد

ألف مشكلة ومشكلة ونحن فى النقاد نفقد ولا يضاف جديد ، فقدنا أستاذنا المرحوم الدكتور مندور ، وأستاذنا العقاد ، والملتزم الجاد القدير أنور المعداوى دون أن يضاف للقائمة اسم جديد ، بل مع اختفاء الدكتور الراعى اختفى أيضا الدكتور عبد القادر القط ، والدكتور رشاد رشدى كف هو الآخر عن النقد ، الدكتورة سهير القلماوى تكتفى فى أحاديثها الاذاعية تقريبا بكتب التراث حتى الاستاذ أنيس منصور تحـــول من نقـد الادب الى نقد الظواهر الغامضة فى الكون . ان الركيزة الاولى لأى (حركة) أدبية هى الناقد الكبير فبلا ناقد لا يمكن أن توجد حـركة وانما يتحول الادب الى ظاهرة انتاج فردى ، وهو الوضع الذى آلت اليه حركتنا الادبية التى لم يعد بها الا منتجون، مصير انتاجهم محمول على كف عفريت . قد نفقد أجـل الاعمال وتؤوب الى الاهمال والنسيان لان حظها ، مجرد حظها ، عاثر ، وقد تتسلط الاضواء بحكم الصدف وحدها لترفع عملا لا يستحق الذكر . فى الحقيقة أصبح مصير

اثمن ما تنتجه قرائحنا فى الادب والفن متوقفا على هوى ومزاج أناس غير مسئولين يزاولون النقد كهواية ، وبالمناسبة ، بلا أى التزام أو فهم أو أساس . معظمهم أناس لديهم الفرصة للكتابة فى المجلات والجرائد وممن لهم حق قول الرأى والتوقيع بالاسم . حياة أى عمل فنى أو مصيره اصبح معلقا برأى هؤلاء بطريقة كف الجمهور معها عن تصديق ما يكتب أو الايمان به فكثيرا ما تحشد من هذه الاقلام مظاهرة تشيد بفيلم أو مسرحية مثلا وترفعها الى عنان السماء ، ويذهب الناس لرؤيتها فاذا بهم يفاجأون بالعمل لا يمت بصلة الى ماكتب عنه ،وخطورة حملة هذه الاقلام ، ولانهم ليسوا نقادا ولا يحملون فى صدورهم المسئولية التاريخية عن الحركة الادبية والفنية ولا يؤرقهم أى التزام ، خطورتهم أن لا رقيب عليهم فيما يقولون غير ضمائرهم ، وفى أحيان كثيرة لا ترتبط ضمائرهم بوجه الحق وحده انما ترتبط بوجه المصلحة أو العلاقة الشخصية ، وهكذا أصبح مصير عملك مصير كتابك مثلا أو مسرحيتك معلقا بعدد معارفك من حملة هذه الاقلام ومبلغ حاجتهم اليك أو خوفهم منك . وفى الماضى حين كان الكبار جميعهم ينقدون ، كانت أحكامهم أحيانا تختلف هذا صحيح ولكن مهما بلغ اختلاف وجهات نظرهم فان عملا جادا كان من المستحيل أن يفلته انتباههم ، وكان من المستحيل أيضا أن يسمحوا بمرور عمل ردىء .. فما بالك بتكريمه وتتويجه

ان حركتنا الفنية والادبية اليوم تشبه مباراة كرة بلا حكم ، بل ان الادهى والامر أن اللعيبة قد أصبحوا الحكام ، والكتاب المنتجين قد أصبحوا ينقدون والنقاد بدأوا ينتجون كتبا وأعمالا سينمائية ومسرحية ويكاد صوت الحق وسط هذه الفوضى كلها أن يضيع

وليس الحق وحده .. لقد ذكر لى نجيب محفوظ أن النقد بالنسبة اليه كان البوصلة له والمرآة . وقد تحمست وأنا أقره على رأيه ، فالكاتب حين يكتب قصة او قصيدة قد يحيط بكنه ما فعله فيها ولكن تظل فى العمل زوايا وأبعاد لا يمكن أن يدركها من تلقاء نفسه ولابد من الناقد الجاد ليدله بالضبط على ما فعل .. أين وصل ، والى أى اتجاه هو ذاهب ، وهل وفق أم كان هيكل عمله العظمى ناتئا فى بعض أجزائه يتطلب كما أكثر من اللحم والدم ونوعا اخر من العلاج . ان الشىء الذى لا يعلمه الناس ان الناقد هو ركيزة الحركة الادبية الاولى لانه هو عيون الكاتب وأسماعه ، هو الذى يرى له ، وبالامانة المطلقة يخبره

وهكذا ، ومن خلال وجهة نظر الناقد تتحدد للكاتب احجام عمله وأشكاله وأعماقه وعلى هدى ما رآه تتضح له العيوب الخفية التى لا يدركها سواه ويغير أو يبدل من خط سيره ، أو يطمح فى طريق اخر او حتى يكف تماما عن الخضوع لمدرسته ، باختصار بلا ناقد لايستطيع الكاتب الجاد أن يواصل عمله . لهذا فالخلق والنقد فى الحقيقة عملية واحدة نتيجتها العمل الفنى الكامل ، ان الكتابة المتصلة تتصل لانها محاولة الكاتب المستمرة للاقتراب من الصورة المثلى المرسومة فى ذهنه ، واذا كان الكاتب باستطاعته أن يرى الصورة المثلى التى يريد الوصول اليها ، فللأسف ليس باستطاعته أن يرى الصورة التى ينفذها فعلا وينتجها . الناقد يراها له ، وفى نفس الوقت يراها الناس . ان الناقد (يقرأ) لنا الكاتب وقد نظن أن باستطاعتنا القراءة بمفردنا ولكن يكفيك أن تقرأ هاملت شكسبير بمفردك ثم تقرأها بعد أن تكون قد قرأت (نقد) دوفرلسون لها . ستحس أنك كنت كمن لم يقرأها ، وكأن دوفر علمنا كيف نقرؤها

ليست مسألة شخصية

الوضع كما نرى خطير ، يستشعر خطره كاتب كنجيب محفوظ قد يعتقد البعض انه لم يعد بحاجة الى النقد أو النقاد في حين أنه كلما قارب الكاتب من نضجه ، أي كلما اندفع فى تجـــاربه الفنية الى أعمق ، أحس بالضرورة القصوي للوقوف على كنه ما يفعله . والغريب انى أصبحت كلما أخرجت كتابا يحوى مجمـوعة قصص وأحسست بحاجتى لنقدها كان بعض الاجابات من زملائنا النقاد غريبة تدفع للذهول ، أكثـر من مرة قال لى أكثـر من ناقد : الحقيقة اننا نرى انك لم تعد بحاجة الى النقد أو الكتابة عنك ونحن نفضل فى هذه الحالة ان نكتب أو ننقد كاتبا ناشئا جديدا . وان يهتم النقاد بالكتاب الجدد واجب أكيد ولكن غير المعقول ان يكون هذا الاهتمام على حساب أن قصصى لم تعد بحـاجة الى النقد وكأن النقـــد أصـبح يفهم على انه (دعاية) للكاتب او لاعماله بحيث توجه لمن هو فى حاجة أمس اليهـا . للأسف يغزو هـذا المفهوم الغريب للنقد عقول بعض كبار نقادنا ويحسون ، على الاقل بينهم وبين أنفسهم أن كتابتهم عن فلان دعاية له . وربما من أجل هذا المفهوم نفسه انكمش النقد وتضـاءل عدد النقاد ، اذ لابد أن عددا منهم أحس أنه لا يفعـــل اكثر من (الدعاية) لهذا الاديب او ذاك فيصبح الاجـدى حينئذ ان ينتج هو ويصبح أديبا مثلا ، او أن يكف أصلا عن النقد استخسارا لجهده أن ينفقه فى تمجيد الاخرين

هذا هو أخطر ما يمكن أن يصير اليه مفهوم النقد ، ان يصبح عملا شخصيا يرتبط بشخص الكاتب أو الناقد وان يفقد معناه الحقيقى الموضوعى . ان الكاتب الحقيقى يدعى اذا هو اعتقد للحظة أنه ينتج ليصنع له اسما رنانا كالطبل .

ان الكاتب الحقيقى تزعجه فى الواقع الشهـرة وان كان يستمتع بجزئه البشرى العادى بها ولكنه لحظة الجـــد لابد أن يحس انه انما يكتب لانه يؤمن برسالة ما أو بجمال. ما أو بقيمة ما يهب نفسه للتبشير بها وترويجها . والناقد الحقيقى يتناول أعمال الكتاب لا لأن هذا صديقه أو أنه معجب بذاك وانما لان الكتاب وأعمالهم هم مادته الخام التى ، من خلالها ، يدعو لرأيه وفلسفته والقيم الروحية والجمالية والفنية التى يؤمن بها . انه أيضا .. يستسلم للضعف البشرى اذا هو أحس انه يكتب عن فلان أو يروج لاعماله بالكتابة عنه . ان المسألة بعيـدة كل البعـد عن شخص الكاتب وشخص الناقد . ان الحركة الادبية والفنية تؤول الى جحيم حين يتحول اهتمـام القائمين بهـا من الاعمال والقيم الى أشخاصهم وأشخاص غيرهـم . ان الذاتية والذاتية الغيرية هى عدوة الفن اللدود كما هى عدوة العلم والثورة وكل عمل انسانى شريف . بهـذا المفهوم الضيق يتحول الحقل الفنى المليء بالزهور وانماط الجمال الى غابة يصطرع فيها وحوش كل منها ينشـــد التهام غيره وتضخيم ذاته . لكى يقر النظام وتحرق الغابة وتنقرض الوحوش وتستحيل الى بلابل مغـردة لابد أن يستيقظ النقاد الكبار ويحسوا بخطئهم البشع ومسئوليتهم الكبـــرى عن الكارثة ، ومن جـديد يطبقون المقـاييس الموضوعية ، من جديد يبدأ الحق يسود والعدل ، من جديد يبدأ الحماس للخلق ، للاصالة ، للقيم الفنية المهدرة ، من جديد يطغى الاحساس بالفن وحده مهمـا كان شخص منتجه ، من جديد يبدأ الجمهور يثق فى كلمة النقد المكتوبة ويؤمن بأن الرأى الصادر لم يصدر الا عن ايمان حقيقى لا يخالطه الهوى أو الشلة أو المصلحة ، من جديد ينكمش عدد هواة النقد المخربين ويزداد عدد الجادين البنـائين ،

من جديد يدهب رعب الكتاب واشفاقهم على مصـــير
أعمالهم وجريهم بطريقة مخجلة وراء كسب الاقلام المؤيدة
ويصبح كل عملهم مقصورا على الانتاج ، أما ما بعد هذا فهو
مسئولية حركة نقدية كبيرة ملتزمة عاقلة ، من جديد يبدأ
كاتب كبير كنجيب محفوظ (يرى) ما قدمه كى يعـرف
طريقه الى تقديم غيره

وداعا .. لهيمنجواى

أحسست بفجيعة تكاد تكون شخصية لوفاة هيمنجواى ، لا لعظمته ككاتب ، ولكن لعظمته ، فوق كل شيء ، كرجل، وحقيقة مسلم بها نادرا ما اجتمعت الموهبة العظيمة مع الشخصية العظيمة ، فمعظم الكتاب يكتبون عن البطولة والابطال لانهم ليسوا أبطالا وليس فى حياتهم بطولة وقليلون منهم يكتبون عن الابطال لانهم انفسهم من الابطال ، ولان البطولة عندهم أعمال عادية يزاولونها دون احساس بأمجادها او خطورتها . هيمنجواى كان من ذلك النوع ، ولم تكن بطولته أنه غزا الاقطار أو أقام امبراطوريات أو انتزع لنفسه تاج اشتغاله بمعركة الانسان ، بطولته كانت انه عاش الحياة بجراة ، بمثل ما يجب ان تعاش به الحياة، وواجهها . بطولته انه كفرد وكرجل ، أدرك مشاكل عصره واقتحمها ، وظل يقتحمها ، ويؤمن بعمق أن عمله كانسان، كآلة الحياة الكبرى .. ان يظل يواجهها ويقتحمها ، حتى فى أقسى وأقصى صورها ظل يواجهها

وحين حدثت النتيجة الثانوية لذلك الهدف ، وأصبح هيمنجواى كاتبا شهيرا مرموقا ، كانت النفس الكامنة فيه أكبر من أن تشغلها متعة الجلوس على عرش المجدوالشهرة،

وآثر أن يظل لدى نفسه الرجل المقتحم للحياة والمشكلة ، ونبذ العرش وحمل البندقية ومضى يحارب بجانب الحق، وحين أدرك ان الحرب بجوار الحق لها نفس بشاعة الحرب بجوار الباطل سئم حرب الرجال جميعا .. وباستطاعتى أن أضيف أنه سئم أيضاعالمهم، ومضى يقتحم عوالم الكائنات الاخرى فى أحراشها وحلقات مصارعتها .. فى أدغالها وبحورها ، يؤدى دور الصـائد ، دور الرجـــل من قديم الزمان ، ويؤديه بكل ما يملك من قدرة وكمال ، مثلما كان يكتب ، فكتابته لم تكن تنبع عن نقص ، كانت تصدر عن كمال ، واحساس بالكمال . ان قصصا مشهـورة كثيرة لكتاب مشهورين تقرؤها فلا تجـد فارقا بين أن يكون كاتبها رجلا أو سيدة أو شابا أو شيخا . اذ من الممكن أن يكون أحدهم أو كلهم كتابها ، هيمنجواى هو الوحيد الذى تحس اذا قرات له أنك تقرأ لرجل ناجح خبير ، جملته جملة رجل ، وحواره حوار رجل ، وحبه حب رجال

وأمثال هيمنجواى ، ذلك النوع الذى لا يوجد فاصل بين حياته ومؤلفاته ، بين أفعاله وتصرفات أبطاله . أمثال ذلك الرجل تصبح حياتهم فى الحقيقة أروع وأعظم أعمالهم الفنية على وجه الاطلاق ، فهم لا يحيونها كيفمـــا اتفق ، انهم يؤلفونها قبل أى شىء ، واذا تتبعنا تاريخ حيـــاة هيمنجواى لادركنا على الفور أنه لم يعش الحياة كما تطفو الخشبة على سطح البحر تحركها الامواج كيفما تريد ، أبدا ، لقد كان مزودا بموتور ارادى هائل اســتطاع به أن يشق البحر ، ويخضع ما هو موجود لما يريد ويخطط لحياته وكأنه يخطط أعظم حياة لاعظم بطل ، لوجدناه فى كل ثانيـــة من عمـــره الاول يقف ، ويصر على أن يقف ، لا حيث توجد مصلحته ، وانما ، كما يقول البطل الاخـر كاسترو « حيث يوجد واجبه » حيث القتال على أشده فى

فى ايطاليا ، وحيث المعركة من أجـــل الحرية دائرة فى أسبانيا ، دائما حيث يقف الرجال

وكل أعمال هيمنجواى لم تكن الا المذكرات الشخصية لابطل الذى بارادته خطط له ورسمه • وكل ما فيها من أمجاد •• أمجاد خلقها هيمنجواى الرجل قبل أن يخلقها هيمنجواى الكاتب ، أو على وجه أصح نقلهـــا الكاتب عن تجربة الرجل

أليس من المضحك بعد هذا أن نتساءل : هـــــل انتحر هيمنجواى أم مات قضاء وقدرا ؟!

ارأينا فى حياتنا قصة انتهت قضاء وقدرا ؟!

ارأينا قصة تنتهى دون أن يتولى كاتبها انهاءها بنفسه وبارادته ، دون أن يضع لها ، وبكل دقة ، الخاتمة التى ترتفع بها الى أقصى درجات الاتقان ؟!

وهل هناك شك ؟! لقـد انتحر هيمنجواى • أقصـــد بيده أنهى حياته ، بارادته وضع خاتمة أعظم أبطاله . . نفسه .. وانى لأنحنى له احتراما ، فما أروع الخاتمة ، وما اليقها بالبطل . وهل كان معقولا ان يظل رجل مثله حتى يهمد ويشيخ ويصيبه الشلل ويصبح نفـــاية تتولى الشيخوخة والموت وضع النهاية لها ؟ !

.. هل كان معقولا ان الرجل الذى ظل حياته كلها يحارب الموت والضـــعف ، ينتظر حتى ينهيه الضــعف والموت ؟! انى لأكاد أحس به فى أعظم لحظات حياته ، اللحظة التى وقف فيها يتأمل ما سبــق من حياته وما سيجىء ، اللحظة التى تأمل فيها جسدا جاوز الستين وروحا بدات تشيخ وارادة دب فيها الوهن وبدأت ترضخ للواقع والموجود . اللحظة التى تأمل ما فعله فوجد أنه حارب الى جوار الحق حتى يئس من نصرة الحق فبدأ يحيا لنفسه ، وببطولة الرجل أيضـا حتى أشبع نهمه الى

حياة الصائد ، اللحظة التى تأمل فيها العالم من حوله .. وأحس بمشكلاته أكبر وأسخف وأعقد من أن تحلها جهوده وحده او جهود أى انسان بمفرده أو حتى باستطاعة أى فرد مهما عظم أن يشارك فى حلها .. تأمل عالما غير عالم ١٤ و ٣٦ و ٣٩ ، عالما جديدا مربكا مخيفا ، الرأى فيه يختبىء وراء الصاروخ ، والمعارك بين دول جبارة القوة ، عالم دول لا رأى فيه لافراد حتى لو كانوا أفرادا عظاما كهيمنجواى ، عالما حين خرج أخيرا للبحث عن الحق فيه تاه فى البحر ووجد القارب مثقوبا واصطاد السمكة ، ولكن التهمتها منه وحوش « القرش » ، وعاد .. متعبا ، شيخا ، ضعيفا ، حزينا . انى لأكاد أحس بهيمنجواى وهو فى أعظم لحظات حياته وهو يدرك وهنه الشخصى ويستبشعه ويستنكر أن يعيش مهزوما كجسد ، ويدرك كنه العالم من حوله فيجد أن لا بقاء فيه الا أن يرضى من يريد البقاء بنصيب المغلوب ، المغلوب على رأيه . فهل يرضى البطل بنصيب المغلوب ؟ هل يقبل أن تستمر الحياة، لا كانتصار للحياة وانما كهزيمة لها وضعف ، وهل يقبل هذا بأى ثمن ، ولو كان الغلب على الامر والرأى ؟! هل يقبل الرضوخ للزمن ويقنع من الحياة الماثلة بشيخوخة هادئة ، ساذجة لا تحمل الهم ؟ ! أم ينهى القصة هنا ، وبالضبط هنا . وحسنا وما أروع وأعظم ما فعلت ياهيمنجواى

وأسفى عليك ، أيها العالم ، عالمنا ، حين يصبح خير ما يفعله الرجل الفرد الواعى بك وبمشاكلك أن يفضل الموت على البقاء حيا فيك ، وأسفى أعظم حين تصبح ميتته غير مستنكرة أو ممجوجة .. بالعكس ، شريفة ، رائعة ، ميتة أعظم بكثير من حياة الكثيرين

ان شجاعة هيمنجواى فى انهاء حياته لا يعادلها فى

رأيى الا شجاعته فى مزاولتها .. أجل .. أخيرا .. فى عالم مطحون بالعدد والمكن والتوتر والحيوانية ، ها هو ذا صوت يتصاعد ، من أمريكا ، وينطق قائلا : أنا بشر .. أنا رجل .. فقد كان بوسعى أن أظل أعيش ولكنى فضلت أن أموت حين رأيت أن حياتى لن تليق بى كبشر وكسيد هذا العالم ، كرجل

أيها الرجـــــل الكبير لقد كانت ميتتك .. مثل ميتة الشهداء فى الجزائر وفى كل مكان ، من أعظم أحـداث الانسان ، فأنت بموتك ، لم تمت وانما انتصرت على الموت، وعلى الحياة ، وعلى عالم الرجال الصغار ، اللا أبطال .. عالمنا ..

انى أحسدك ..

نقاش..

قضيت اليوم كله فى نقاش مستمر مع يسرى ، هو يحاول أن يقنعنى بالعودة لمزاولة الطب ، وأنا أحاول اقناعه بضرورة أن يعود هو للكتابة ومزاولة الادب

والغريب أن هذا الموقف ذكرنى بموقف مشابه له تماما حدث منذ عشر سنوات حين كنا لا نزال طلبة فى الكلية وكان يسرى يحاول اقناعى فيه بضرورة ترك تلك المهنة البغيضة الطب ، والتفرغ نهائيا لعالم الفن الرحب العريض . وكنت أنا أحاول اقناعه بضرورة مواظبته على الكلية حتى يتخرج ويصبح طبيبا

وكنت وأنا طالب مثالا للطالب المجد المواظب على حضور العمليات والمحاضرات والمرور . ولم يكن فى الا عيب واحد صغير ، هو حبى للقصص الى درجة لا تليق بطالب طب « دكتور » ، بل أكثر من هذا ، كان هذا الضعف يستبد بى الى درجة انى احيانا كنت كل ثلاثة شهور أو أربعة أكتب قصة أخفيها فى قاع مكتبى ولا أطلع عليها أحدا ، فالطلبة من حولى كلهم مشغولون بتلقى أسرار علم الكهنوت الاكبر ، يحيون فى مجتمع مغلق عليهم وعلى الجثث والمراجع الضخمة ، مجتمع نجومه على

ابراهيم وعبد الله الكاتب ومورو ، وليلة القدر عند أى منهم أن يصبح نائب جراحة ، وأنا سائر معهم مدفوع بحركتهم فى سبيل التسابق والتنافس واستيعاب كل ما يمكن استيعابه من الاسماء اللاتينية المعقدة ، والمراهنة على اسم عصب صغير مهمل يرقد فى مكان ما من فروة الرأس

ولكنى أحس بطريقة ما ان الجو ليس جوى ، والهدف هدفهم هم وانا اجرى اليه فقط لانى ارى كل من حولى يجرى اليه . فى تلك الاثناء قرأت ذات يوم قصة فى مجلة القصة لكاتب اسمه محمد يسرى أحمد أذهلتنى ؛ واعتبرت ان كاتبها لابد فلتة ، اذ لم أكن قد سمعت هذا الاسم من قبل أو قرأت له . وظلت القصة واعجابى بها يملآن على نفسى الى أن حدث وعرفنى أحد أصدقائى القليلين من الطلبة فى جلسة من جلسات البوفيه المشهورة بزميل كان يجلس مقطب الجبين عازفا عن الاشتراك فى حديث الطلبة التافه ، وقال محمد يسرى أحمد . ولم أصدق ابدا انه هو كاتب القصة التى أذهلتنى ، ولم أستطع أبدا أن أهضم انه هو الاخر طالب فى الكلية ، بل فى نفس الدفعة ، بل فى مجموعتى التى تبدأ بحرف الميم وتنتهى بحرف الياء غير ان عجبى زال حين عرفت انه على عكسى وعكس طلبة الطب جميعا ، بينه وبين الكلية نوع من سوء التفاهم وعدم الاستلطاف ، فهو لا يأتى اليها فى العام الا مرة أو مرتين ليطمئن على أنها لا تزال موجودة لم تلغ بعد ، اما بقية الوقت فهو مشغول بأشياء أخرى .

ولم يكن هذا أول طالب بلطجى أقابله فى الكلية ، ولكن البلطجية الاخرين كانوا يتركون الكلية للنساء أو الليالى الحمراء والخضراء ، أو أشياء اكثر اغراء من الطب ، اما

أن تترك الكلية لكتابة القصص فهو نوع غريب حقا من البلطجة !

ومنذ ذلك اللقاء لم نفترق . وبعد أن التقينا عدة مرات، وثقت به تماما صارحته بأنى أحيانا أكتب قصصا ولكنى أخاف أن أطلع عليها كائنا من كان . وفوجئت حين لم تبد على ملامحه أية علامة من علامات السخرية ، بل حدث العكس ، وجدته يبتسم لى فى ترحيب شديد ، بل وجدت نظرته تحفل باكبار واجلال لم أكن أتوقعهما ، وأصر على استصحابى لكى نقرأ ما كتبته

وفى وجل شديد ، وبقلب يدق قرأت له آخر قصة كتبتها . وكدت أعتقد انه مجنون حين وجدته قد أعجب بها وظل يتحدث معى بضع ساعات عنها

ولاول مرة أحسست أن كتابة القصة ليست عيبا أو شيئا مخلا بالشرف ، وأهم من هذا هو أن الاقناع جاء من طالب طب زميل . وحين غادرنى يسرى ليلتها أحسست انى أقف على باب عالم جميل غريب مجهول أهون شىء على الانسان أن يهب عمره لتفقده وتعرف مخابئه وأسراره وكل ما يحتويه

وليال طويلة قضيناها يقرأ لى ما كتبه وأقرأ له ماكتبته وشوارع « المدينة النائمة » نجوبها سيرا على الاقدام ، جوعى مفلسين ، نبحث عن الحقيقة ونناقش الفن والخلود وأصل الكون والفرق بين رومانسية ايليا ابو ماضى ورومانسية ناجى . وكل موضوع نطرقه نتفق فيه بطريقة غريبة ، الا موضوع الكلية . أنا أحاول أن أجعله طالبا مواظبا وهو يحاول اقناعى بترك الكلية نهائيا والقاء نفسى فى بحر الفن الذى لا يغرق فيه انسان ولم ينجح فى اقناعى ولم أنجح فى اقناعه ، وجاء الامتحان، وتخرجت . وما كاد يمضى على تخرجى بضعة شهور حتى

أدركت أن يسرى على حق ، وأنني لم أخلق للطب ، وقذفت بنفسى فى بحر الفن ، لاسبح وحيدا ، فيسرى كان قـد اقتنع ولا أدرى كيف ، ان المواظبة على الكلية والنجـاح ليست عيبا ولا شيئا مخلا بالشرف ، وهكذا نجح وأصبح طبيبا ، وسرعان ما احتواه عالم الطب وما فيـه من أسرار ومشاكل ، وترك الكتابة نهائيا

وافترقنا ..

ومن شهور قليلة جاء يسرى من السودان بعد أن زاول الطب حتى شبع . وأقسمت بينى وبين نفسي ان لا أدعه يفلت هذه المرة ، ولابد لى من اقناعه بالعودة الى مجال هو فارسه الاول بلا منازع ، ويبدو أنه هو الاخر كان قد أضمر فى نفسه شيئا ، فقد وجدت منه اصرارا غريبا على أن أعود لمزاولة الطب . ولكى يتحقق هدفى وهدفه تظاهر كلانا انه قد اقتنع بوجهة نظر الاخر ، وقررنا أن نفتـح عيادة معا ، يحاول هو أن يجـرنى بها الى الطب وأحاول أنا أن أخرجه منها الى عالم الكتابة

ولا يزال النقاش بيننا حادا مستعرا ، وأخوف ما أخافه أن ينجح يسرى فى اقناعى وأفشل فى اقناعه

انى لأشفق على عيادتنا المشتركة فى عشش الترجمان من الصراع الرهيب الدائر فيها

داخل الصندوق معركة

الكتاب حقيقة صغير فى حجمه ، ولكنى ترددت طويلا وأنا أقلب صفحاته ، وكل كتاب فى رأيى صندوق مغلق قد تفتحه فتفاجأ بكنز ، وقد تضنى نفسك فلا تخرج فى النهاية الا بقبضة لآلىء زائفة ، ولكنى هذه المرة متأكد من صاحب الصندوق فمحمود أمين العالم قد دخل حياتنا الثقافية والادبية من أوسع أبوابها ، دخل ليحتل المكان المرموق الشاغر ، وحياتنا الادبية الجديدة كانت فى حاجة الى الناقد الجديد الذى يستطيع أن يدرك أبعادها ويفهمها ومنها نفسها يستخرج الجوهر ، الى الناس يجسده ويدافع عنه . كانت فى حاجة الى الناقد الذى ينبع منها ليرعاها وبأنامله المخلصة المحبة يحدد مواطن القوة فيها وبقلمه المشفق يلمس مواطن الضعف ، وهكذا ، وفى أقصر وقت أصبح محمود أمين العالم هذا الناقد الذى تبوأ مكانه عن جدارة بين رعاة الحركة الادبية الجديدةالتى بشرت بالثورة وتفجرت معها

وصحيح ان نقاد هذه الحركة كثيرون بحيث أصبح كل من باستطاعته أن يردد كلمة الحرية أو الاشتراكية أو المضمون التقدمى أو الفن للشعب ناقدا محسوبا عليها ،

ولكن هؤلاء الجديرين فعلا بكلمة ناقد ، تلك التى ترتفع فى رأيى الى مستوى العدل السماوى، قليلون ، والموهوبون الذين باستطاعتهم فوق الاخلاص والصدق أن يعبروا عن رأيهم هذا تعبيرا يرتفع الى مستوى الفن لتصبح أعمالهم النقدية أعمالا فنية تستوحى مادتها من الاعمال الفنيـــة للآخرين ، هؤلاء الموهـوبون أقل وداخل هــذه الدائرة الضيقة تنوعت اهتمامات رعاة الحركة الادبية الجديدة فكان اهتمام الدكتور على الراعى يتجه أكثر الى التذوق الفنى على مستوى رفيع ، وكان اهتمام أحمد عباس صالح مركزا أكثر على الحكم الصارم لتحـــديد مدى قربها أو بعدها عن الفن بمفهوماته المتطورة الجديدة فى حين وهب رجاء النقاش نفسه للدفاع عما ينتقيه ليعتبره النمــوذج للشكل والمضمون الجديدين معا ومالا يعجبه فهو أصــلا لا يكتب عنه ، أما الزميل الكبير احمد رشدى صالح فهو وان كان من أعمدة هذه الحركة الجديدة الا أنه فى حكمه عليها فانه لا يختصها بتحيز ولا يفرق فى حكمه بين جديد أو قديم وانما يتحمس للجيد فى رأيه انى وجد ، بل انه فى أحيان يتحفظ وكأنه ناقد من أجيال الشيوخ ، فلا يأتى اعترافه بالجديد الا بصعوبة

وبقى لهذه الحركة من رعاتها مثلان بارزان على طرفى نقيض ، فالدكتور لويس عوض ليس مجرد ناقد لهــذه الحركة أو راع ولكنـــه وكأنه عالم أدب ، فكما يحفــر فى القديم ليعثر على رموز تخدم المدرسة الفـكرية المتكاملة التى يحاول انشاءها ، فهو أيضا فى الجديد مشغول الى درجة عظمى بالتنقيب عن الرموز الجديدة يفكها ويحللها ويصلها بالقديم ويقيم من هذا كله دعائم مدرسته

الاستاذ محمود أمين العالم هو الآخر صاحب مدرسة تختلف فى رأيى اختلافا جذريا عن مدرسة الدكتور لويس

عوض وان كانت تتفق فى الوسيلة ، فالعـــالم أســاسا فيلسوف وفى الحركة الادبية الجديدة من الاعمال مايجد فيه صاحب فلسفة واضحة محددة مثله مالا بد أن يأخذ منه موقفا اما بالاشادة واما بالرفض . وميزة العالم ان الفلسفة عنــده ليست موضــوعا أكاديميا أو معــادلات رياضية ، ولكنها قضية تكاد تصبح ، بل تصبح فعلا قضية حياة أو موت ، وقد يأخــذ البعض على محمود العــالم حماسه وهو يعرض آراءه ولكنهــا فى الحقيقــة ليست حماسة انها اهتمام رجل وهب نفسه لرأيه وللدفاع عن وجهة نظره وفعل هذا بكل ذرة قدرة لديه . وهذا هو أروع ما فى الموضوع

الخطورة فى حامل الشعار

فليست المشكلة فى رأيى هى أى رأى تعتنق ، فلتعتنق ماشئت من آراء ولكن المهم هو مدى اخلاصك لهذا الرأى ومدى صدقك مع نفسك ومع الاخرين ، فحتى لو كنت مخطئا ، حتى لو عاديت الاشتراكيــة مثلا عن احســاس حقيقى وعن ايمان ، فعن طريق ايمانك هذا والمجـاهرة به ، عن طريق الصدق لابد حتما ان تصل الى الصواب . ان الصادقين فقط هم الذين يصلون دائما الى الحقيقة حتى لو فرض وبدأوا من بداية خاطئة . ومحمود العالم ، مثله مثل الآلاف من مواطنينا المخلصين لم يولدوا بالأراء التى يعتنقونها الان ، وكثيرون منا بدأوا حياتهم الوطنية والعقائدية بالانضمام الى مصر الفتــاة أو الاخوان ولكن رغبتهم العارمة فى الوصول الى الحقيقة ، صدقهم مــع الاخرين ومع أنفسهم كان لابد أن يقودهم حتما الى الطريق الصواب . المشكلة فى رأيى ، بل الجريمة هو ما نراه لدى بعض الناس ، أولئك الذين ، ويا للغرابة ، يضعون أنفسهم

فى مكان الصـــدارة من الدفاع عن الحـــرية والعدالة والاشتراكية ، أولئــك الذين لا تسمعهــم الا مجعجعين بكلمات طاهرة نقية مثل الشعب والتقدم وشرف الكلمة، الواضعين أنفسهم دائما فى مكان القضاة يحكمون على خلق الله بالانحراف أو بالعداء للشعب أو الرجعية أو الانتهازية والنكوص والخيانة والتردد ، الذين نصبوا من أنفسهم مبشرين بالاخلاق الفاضـــلة والسلوك السـوى وهم فى حقيقتهم نماذج بشعة للالتواء والجبن وكل سلوك أعوج ٠ كم من الناس (يلتزمون) بحناجرهم فقط ، تقرأ للواحد منهم أو تسمع فيخيل اليك أنه راهب شعبى يتعبد فى محراب التضحية والبطولة والكلمة الشريفة ولكنك تفجع حين تعرف أنه يتخذ من هذه المعانى تجارة رابحة لا تكلفه الا ترديد هذه الكلمات بمناسبة وبلا مناسبة ..

انه الشىء الذى يدفع حقيقة للاشمئزاز ان ترى تلك النماذج من الكائنات التى لا تحوى فى أعماقها ذرة واحدة من ذرات الخير ، بله التقدم ، وهى تحمل راية الشعب وتجأر باسمه ، نماذج ، يا لها من نماذج ، لقـد عددت بنفسى ، فى مقالة لاحدهم كان ينقد فيها بعض من يعتبرهم شريرين وخبثاء ، عددت ، فى فقرة واحدة لا تتعـدى السبعين كلمة ، اثنتين وعشرين كلمة كلها تدور حـول الحقد والبغض والمستنقع والقيح والنتـانة والانحطاط والفجر والبشاعة .. اثنتين وعشرين كلمة كهذه فى فقرة واحدة من مقالة يدعو فيها الى الصفاء والمحبة والخلق السوى !

أعتقد أنه قد آن الاوان أخيرا الا تظل الشعارات تخطف ابصارنا خاصة وكل الناس والحمد لله قد أصبحوا حملة شعارات براقة خاطفة ، المهم أن ندرك جيدا كنه اليد التى ترفع الشعار ، والمصدر الذى يردده ٠٠ ادراك هذا بالغ

الاهمية لان من السهل جدا أن نخدع عن الحقيقة باسم الحقيقة وعن التقدم وعن شرف الكلمة باسم شرف الكلمة، من السهل ، ما دمنا نجرى وراء الشعار فقط أن يخدعنا حامله ، وبنفس الطريقة التى يكذب بها علينا .وربما على نفسه يجرنا الى مزالق بالغة الخطورة ، ولانه يصدر فى دعوته للفضيلة عن حقد ينشر الحقد بيننا دون أن نحس ، فالحقد روح تسرى ربما من خلال أطيب الألفاظ ، وما أكثر ما تسربت روح تشكيك الناس فى الآخرين واستعداء البعض على البعض من خلال دعوات صالحة الى المحبة والتسامح .

ولكنها ، والحمد لله أيضا ، نماذج قليلة ، أصبح أمرها معروفا حتى ليكاد المواطن البسيط يحددها بالاسم واللقب وسر اعجابى الشديد بمحمود أمين العالم ، رغم كل ماقد يكون بيننا من اختلافات ، هو انه النموذج المناقض تماما لهذا النوع الذى ذكرت ، انه الابن الطيب الذى ورث عن هذا الشعب كل تواضعه وبساطته وصدقه الكامل مع نفسه .. وحين اعتنق محمود العالم رأيه لم يحمله فى يده صولجانا يتباهى به على الاخرين ويتهمهم بالتخلف ويشيد بسموه وتقدميته انما راح بكل بساطة يعمل من أجل اقناع الاخرين وكسبهم ، لم يجعل همه أن يضبط الناس ويسجل عليهم تقاعسهم أو قصورهم ، أو ينعى على الضعفاء ضعفهم ، لم يحله رأيه الى قاض أخلاقى يحكم على الاخرين ويندد بهم ، وانما بكل سماحته مضى يبحث فى الناس عن مواطن الخير ويحبذها ويمجدها ، ويعيش رأيه فبينه وبين نفسه هو هو بينه وبين الناس ورأيه فى وجهك هو نفس رأيه فى غيبتك وبلا تجارة بشرف الكلمة هو دائما شريف الكلمة ، وبلا صراخ أو ضجيج مفتعل واتخاذ لموقف الشهيد المعذب ضحى ولم أسمعه مرة يذكر تضحيته أو أحسست به

واعيا أو مدركا لها وكأنها ما حدثت ، ولم تكن هذه صفاته هو وحده ، ان شعبنا حافل بالملايين من أمثاله ، آخرهم وليس أقلهم هو ذلك العامل فى السد العالى الذى لا يقرا ولا يكتب ، ذلك الذى كان بعد أن تنتهى نوبته يظل فى مكانه يعمل ولا يطالب ابدا باحتساب اجر على عمله الاضافى هذا ولا سمعه أحد يذكر انه انما يضحى من أجل مشروعنا وشعبنا ، الخير فينا كثير ولكن المشكلة ، الشاذ ، هو ذلك النوع من الكائنات الذى آن أوان انقراضه واختفائه كلية من حياتنا

معارك فكرية ولكن

وكتاب محمود العالم « معارك فكرية » صورة مصغرة لشخصه ، كل ما فى الامر انك بعد قراءته تؤمن أن العالم يعتنق رأيه ، لا لانه مع الرايجة ، أو ليركب موجة الاشتراكية الصاعدة ولكن لانه وصل اليه بعد رحلة بحث شاقة وعميقة بعد معاناة جادة ودؤوبة لمواطن مثقف أراد أن يعرف الحق والحقيقة ، وحين وصل الى ما آمن أنه الحل الحتمى ليس فقط لمشاكل شعبنا وانما للعالم والوجود كله وهب نفسه كلية لهذا الايمان يدعو له ويناضل فى سبيله ويدافع عنه

والكتاب مذكرة ضليعة أعدها محام قدير مدافعا عن قضية الاشتراكية العلمية ، مذكرة تفند فى تدفق وقسوة أقوال شهود النفى من براجماتيين ووضعيين منطقيين ووجوديين وغيرهم ، وفى نفس الوقت تبشر بتدفق أعظم بكل ما يصلح دليلا للاثبات . وكم كنت أتمنى لو لم يكن الكتاب عديدا من المقالات المتفاوتة التواريخ فقد أدى هذا الى أن هناك مقالات تحس ان الاراء الواردة بها قديمة والقضايا التى تثيرها قد انتهى الجدل حولها من زمن

فى حين انى كنت أطمح من كتاب يكتبه العالم اليوم ويتحدث فيه عن الاشتراكية أن يأتى ابن ساعته ، ابن أعوامنا هذه وقضاياها فالجدل حول الاشتراكية لم يعد جدلا حول نفعها أو اهميتها او تفوقها على كل الفلسفات ولا عن حتميتها ووحدانيتها كالوسيلة العلمية الوحيدة لحل متناقضات المجتمع البشرى بحاضره ومستقبله . كل هذا لم يعد محل جدل كثير ، انما الجديد اليوم هو القضايا التى أثارتها الاشتراكية نفسها لدى تطبيقها ، الجديد هو المشاكل التى لم تنجح الاشتراكية العلمية فى حلها الجديد هو القضايا التى كانت تعتبر مسائل مسلما بها والتى لم تعد الان كذلك . الجديد مثلا هو مشكلة علاقة الفرد والمجتمع اذ أن التطبيق قد أثبت انه فى بعض الاحيان يطغى الوجود الجماعى على الوجود الفردى الى درجة تهدد الجماعة نفسها ، الى درجة أصبح شغل المفكرين الاشتراكيين الشاغل هو كيفية تحقيق الوجود الفردى داخل الوجود الجماعى دون أن تتضخم الفردية وتطغى الجديد هو الديمقراطية الاشتراكية لا كشعار وانما كحقائق وتطبيقات .. الجديد هو التغيرات التى طرأت على موقف الاشتراكية من الداروينية والفرويدية والنسبية . كل هذا كنت ولا ازال أتوقعه من كتاب يكتبه محمود أمين العالم عن الاشتراكية . ولكن الكتاب ليس بالضبط عن الاشتراكية وانما هو كما يقول عنوانه معارك فكرية .. صحيح انها معارك فكرية يخوضها مفكر وفيلسوف اشتراكى ضد أفكار وفلسفات غير اشتراكية ولكن رغم دسامة الدراسات وعمقها ، رغم انها ترسم صورة نابضة لجانب هام من جوانب وجودنا الفكرى والسياسى ، رغم أن موضوعها معروف وموقف كاتبها واضح سلفا ، رغم انها أول كتاب لمحمود أمين العالم ، الا اننى ، ومعى الاف

من قراء السياسة والفلسفة والمتتبعين لكل ما يمت الى قضية حياتنا ، الاشتراكية ، لا نزال فى حاجة ماسة ، من كافة كتابنا ومفكرينا وفلاسفتنا الاشتراكيين ومن محمود العالم بالذات الى كتاب عن المعارك الجديدة للاشتراكية ، واهمها معركة الاشتراكية والاشتراكيين مع الاشتراكيـة نفسها أو بمعنى أدق مع بعض المفهومات الاشتراكية وبشكل خاص تلك المفهومات التى يتسرب منها الخطأ أثناء التطبيق والتى نسيت فى ظهور الانحرافات الطغيانية وعلى رأسها دون ريب العلاقة التى شغلت بال البشرية منذ اتينا الى لحظتنا الحاضرة ، علاقة الفرد بالجماعة والمجتمع والدولة

انى وان كنت أعتقد ان كتـاب معارك فكرية هـو من أخصب وأدسم ما قراته فى حقل الفكر والفلسفة من انتاج القريحة العربية الا اننى أتطلع بشغف كبير الى الكتـاب القادم لمحمود أمين العالم عن معـارك الاشتراكيـة مع الاشتراكية اذا صح ان تسمى هذه القضايا الخطيرة معارك

الثورة الجزائرية"بومدين

الحقيقة ان شغفى بالثورة الجزائرية لم يفتر يوما منذ أن اندلعت في اول نوفمبر عام ١٩٥٤ ، وقد قدر لهذا الشغف أن يتطور لتصبح القضية الجزائرية قطعة من ذات نفسى وجزءا لا يتجزأ من تاريخ حياتى ، وأنا أشهد أحداثها في مراحلها المختلفة وأرى أبطالها وهم ثوار خنادق وغارات، ثم وهم رجالات سياسة ودولة وأزمات !

وكان أول اتصال حقيقى حدث لى مع الثورة الجزائرية وجيش التحرير هو ذلك اليوم الذى قرر فيه الدكتور عبد القادر حاتم ايفاد بعثة لعمل تحقيق تليفزيونى مصور كامل عن الثورة الجزائرية وعهد لى بشرف رئاسة هذه البعثة ، وكانت مغامرة القمر فقد أتيح لى آنذاك أن أحيا مع جيش التحرير الوطنى الجزائرى وهو يقض مضجع فرنسا بهجومه ومعاركه وغاراته ، وقضيت الايام والاسابيع مع قواته داخل الخنادق المحفورة فى بطن الجبل ، وفوق الربى والغابات ، أشهد وأساهم وأتصور بعض معاركه الفاصلة وعبر الخطوط المكهربة ، وأخرج من هذا كله باصابة فى الركبة اليمنى وبفيلم عن الثورة عرضه التليفزيون ، وكان أول تحقيق يقوم به جهاز للاعلام العربى

عن أعظم ثورة عربية مسلحة ، فيلم عرض أكثر من مرة ، وبيعت منه أكثر من نسخة الى محطات التليفزيون العالمية قصة طويلة مريرة عامرة بالذكريات ..

المهم الذى أريد أن أذكره هنا هى تلك الليلة التى لا انساها ابدا والتى كانت أول وآخر مرة أقابل فيها الكولونيل بومدين فى مقر قيادته السرية لجيش التحرير

كان قد تحدد اليوم ـ بعد انتظار دام أسبوعا قضيناه على أحر من الجمر فى مدينة تونس ـ وفى الخامسة صباحا جاءت عربة (بيجو) فرنسية ذات سائق مسن صامت ، حين لم يعلق على أسئلتنا الكثيرة بأكثر من الابتسامات المؤدبة آثرنا السكوت وأسلمناه أمر مصيرنا . كنا نعرف اننا فى طريقنا الى مقر قيادة جيش التحرير ، ذلك هو كل ما كنا نعلمه ، ورحت طوال الرحلة الصامتة الطويلة أحاول أن أتخيل المكان الرهيب الذى تدار منه المعارك التى تكلف فرنسا ملايين الملايين من الفرنكات ومئات الضحايا . ولم تنته رحلتنا الا قرب الظهر ، حين دخلت بنا العربة مدينة تونسية صغيرة نائية قرب الحدود الجزائرية يسمونها جاردماو ، فى حين إن الاسم العربى لها هو غار الدماء ولكن هكذا كان ينطقها الناس هناك جريا على النطق الفرنسى لها ، بلدة يقال انها شهدت معارك مهولة فى تاريخها القديم ولهذا السبب اطلق عليها اسم غار الدماء

ظلت العربة تجوس خلال شوارع المدينة التى تشبه أحد «المراكز» فى ريفنا المصرى ، وهناك ، عند نهاية البلدة دخلت بنا بناء يبدو كالمصنع القديم المهجور أو كمدرسة ابتدائية خالية من الطلبة .. بناء لا يميزه عن غيره من الابنية الا أن ثمة جنديا بملابس جيش التحرير يحرسه

من الداخل ، اما من الخارج فلا يبدو عليه بالمرة أى لمحة تدل على المهام الخطيرة التى تجرى داخله . هذا البناء كان هو مقر القيادة العامة لجيش التحرير الوطنى الجزائرى، هناك قابلنا (سي فرحات) ذلك الضابط المتحمس الشاب الصغير، ذا المنظار ،الذى لا ينام والتومى جن بجوارفراشه والذى كان يمثل ما يشبه الشئون العامة لجيش التحرير . من تلك اللحظة أصبحت البعثة فى عهدة فرحات ، (تراه أين هو الان وماذا صار اليه) ، وأفهمنا فرحات اننا سنقضى بعض الوقت فى القيادة العامة ريثما يدبر أمر رحيلنا الى الجبهة ، وبعد دقائق كنا نغير ملابسنا المدنية بأخرى من ملابس جيش التحرير ، وهكذا بعد أقل من نصف ساعة كنا قد قطعنا صلتنا بحياة عريضة بداناها فى القاهرة ، ودخلنا فى حياة جديدة علينا تماما او على الاقل هكذا كنت احس وانا محشور داخل بنطلون جندى (صاعقة) وقميصه . أفهمنى فرحات انهما لجنـــدى فرنسى الله وحده يعلم مصيره آنذاك اذ لم أجد مقاسا يناسبنى بين ملابس الجنود الجزائريين الذين يتميزون كسكان الجبال بالقوام الرفيع الصلب

الايتاه ماجور

مكثنا ليلة، وفىالليلة التالية أخبرنا فرحات بقرب حلول موعد العشاء ، والعشاء كان يحل ساعة غروب الشمس ؛ اننا سنتعشى مع الـ Etat Major وهو الاسم الذى يطلقونه على القيادة العامة . وحسبت اننا بعد طعام الفلفل الحار المقلى الذى ظللنا نتناوله منذ أن حللنا بجيش التحرير فى طريقنا الى مائدة طعام دسمة . ولشد ما خاب ظنى ، فقد قادنا فرحات الى غرفة عرفت فيما بعد أنها ملحقة بمكتب القائد العام ذلك المكتب الذى لمحته من خلال الباب الفاصل

لا يميزه شيء عن مكتب ناظر مدرسة الزامية الا منضدة كالتى يستعملها الرسامون عليها خرائط ، دخلنا فرحات وعبد الرحمن هندام وعم رجب وانا (أعضاء البعثـة) فوجدنا ثلاثة أو اربعة رجال جالسين الى طرابيـزة من الخشب الكالح لا كراسى حولها انما على كل ناحية من نواحيها « دكة » خشبية منخفضة ، وقلنا سلام عليكم وردوا السلام وهم يأكلون ، اذ كانوا فعلا يتناولون الطعام دون انتظار لقدمنا وعرفنا حينذاك أن لابروتوكولات هناك فى جيش التحرير ، وجلسنا ، وفى الحال جيء لكل منا بطبق من (الكسكس) وهو الطعام الرسـمى والشعبى للجزائريين الحافل بكميات الفلفل الحراق الهائلة ، وكان هذا هو كل العشاء

ولكن مشكلتى لم تكن الكسكس أو الفلفل او الطعام ، كانت مشكلتى ان أحاول ان أخمن من يكون من بين الثلاثة الموجودين القائد العام ، كنت أعرف أن قائد جيش التحرير اسمه بومدين او الكولونيل بومدين ولكنى لم أكن أعـرف صورته ، تراه من يكون فيهم . تركت مسألة التحـديد للحديث ، ولكن الحديث الذى دار كان قليلا جدا لم يتعد بضع كلمات ذكرها كل منهم وعرفت منها انهم جميعا قد زاروا القاهرة زيارات خاطفة ، ولكنى ، من مجرد طريقته فى الكلام ، من جلسته ، من نظراته خمنت أن القائد العام لابد أن يكون ذلك الرجل الذى كان يبدو انه لم يتجاوز الاربعين الجالس أمامى مباشرة . العجيب ان نفس الخاطر كان يدور فى عقل زميلى هندام وعم رجب وانهما همـا الاخـران أدركا انه نفس الشخص الذى خمنتـه مع ان الضباط الثلاثة كانوا يرتدون نفس الزى ويتمتعون بنفس الاعتداد والثقة بالنفس ، هو ذلك النحيل ذو الشعـر الاشقر الاحمر والوجه الرفيع الضامر المشرب بحمرة ،

كل ما كان يميزه عن زميليه انه كان يحدثنا باللغة العربية بلكنة جزائرية وانما بطلاقة ثبت لنا معها انه خير من يتكلم بالعربية فى جيش التحرير كله بل وبين كل القادة الجزائريين على كثرتهم · أما الضابطان الآخران فقد كان مقدرا لهما أن يلعبا دورا خطيرا بعد هذا فقد كانا هما نفس الضابطين اللذين قبضت عليهما حكومة بن خده وادعت انهما تسللا الى داخل التراب الجزائرى للتمهيد لزعامة بن بيللا وتقوية قبضة جيش التحرير وبومدين على ولايات الداخل وصنعت من هذا حجة لاصدار قرار بعزل « الايتاه ماجور » أو بومدين وأركان حربه وكانت النتيجة تلك الازمة التى أطاحت بحكومة بن خده

فراز الرجال

اذكر أن بومدين سألنا يومها أن كنا جادين فى رغبتنا فى الاشتراك فى معركة يخوضها الجيش مع القوات الفرنسية عند خطوط شارل أو موريس ، وحين أكدنا له عزمنا على هذا أجابنا بأنها مسئولية جيش التحرير أن يحافظ على حياتنا ولكنا ابدينا استعدادنا بكتابة تعهدات على أنفسنا تخلى جيش التحرير من المسئولية ، وتفرس فينا بومدين بنظرة فاحصة عميقة لست أدرى أكان بها يختبر شجاعتنا وهو القائد الذى دربت عينه على فرز الرجال وسبر غور طبيعتهم ، ولكنها والحق يقال نظرة لم نسترح بها كثيرا اذ كانت خالية من الود ، حافلة بالموضوعية · وهكذا بومدين ، انه ليس من ذلك النوع الاجتماعى الودود من الرجال الذى يسخر مواهبه ويستنفد قواه فى كسب الاصدقاء والانصار ، انه دائما موضوعى وجاد وعلاقته بالناس يحددها المبدأ أو القضية ولا تحددها أبدا العاطفة الشخصية وربما يصلح هذا المفتاح لتفسير كنه

ما حدث فالناس لا يزالون للان يعجبون كيف « ينقلب » بومدين على « صديقه » بن بيللا .. اذ ذلك نوع من التصور العاطفى الشخصي للعلاقة في حين ان علاقات بومدين بالناس كما قلت أساسها أبدا ليس العاطفة أو النوازع الشخصية

المهم انى خلال اليومين اللذين قضيناهما فى « الايتاة ماجور » نحيا مع بومدين عن قرب نأكل أحيانا معا وكثيرا ما نلتقى ونتبادل الاحاديث الخاطفة ادركت أن قيادة جيش التحرير ليست سوى الجزء الحاضر أو الظاهر من مهمة كبرى لا تزال مستترة يعد لها هذا الرجل القوى المتميز نفسه

المشهد الغريب

وقد قدر لى أن أعود للقاء بومدين بعد أكثر من عام ، أيام الاستقلال وازمته ، حين أوفدتني جريدة الجمهورية لموافاة قرائها بأخبار وتفاصيل الازمة التى نشأت بين بومدين وبن بيللا من ناحية وحكومة بن خده وبوضياف وبلقاسم من ناحية أخرى . كان بن بيللا أيامها فى القاهرة لا يزال وكان بومدين قد دخل بقواته من الحدود التونسية الجزائرية والمغربية الجزائرية ، واحتل جيش التحرير نصف الجزائر الغربى الذى تعد وهران عاصمته ، رحنا نتنقل مع قوات جيش التحرير وهى تزحف من وجده (قرب المغرب) الى تلمسان (مسقط رأس بن بيللا) ثم نتوغل داخل الولاية الرابعة وهران وتيارت . كان الجيش يتحرك وجبهة التحرير الموالية لبن بيللا وبومدين تعقد الاجتماعات الشعبية ، وبن بيللا يستدعى ، ويأخذ مكانه على رأس الموكب الزاحف ، وكان بومدين دائما هناك ، وهناك دائما جلسته فى جانب من منصة الشرف يرقب

ما يحدث بعيون متيقظة كعيون الصقر ، وتحس أن وراء جبهته العريضة تصميما مستميتا قاهرا على الانتصار ، حتى جاء يوم رأيته فيه فى مشهد بالكاد صدقته عينى ، كانت عائلته قد انضمت اليه ، ورأيته يوما فى مؤتمر تيارت وفرحات عباس ومحمدى السعيد ومحمد خيضر وبن بيللا يحتلون مقاعد منصة الشرف الامامية ويخطبون، بينما هو قابع فى مؤخرة المؤتمر يرقب ما يحدث بنظراته الملتهبة الحادة ، ولكنه كان هذه المرة يحتضن طفلا فى الثامنة أو السادسة من عمره ، عرفت لشدة الشبه انه ابنه ، وكان يحدث فى أحيان قليلة جدا ، ان يقطع نظراته المتفحصة الحادة ، ليرمق الطفل بعيون يتدفق منها فجأة حنان غريب لا تكاد تصدقه ، وأبوة صافية خالصة من الصعب أن تتصور ان بومدين ، ذلك الرجل الحديدى ، هو صاحبها

ولست أعرف لماذا ورغم الازدحام والخطباء والاسماء الضخمة المتصدرة ، ورغم انه الوحيد الذى كان لايخطب ولا يتكلم ولا يدلى بأية تصريحات ، بينما الكل ايامها قد تلبستهم حمى الزعامة وعقد المؤتمرات ، والبلاد وان كانت قد ظفرت بالاستقلال الا انها لا تزال بلا حكومة ، او هى بحكومة كالملك فى بعض الدول تملك اسما ولكنها لا تحكم ، رغم ان الجزائر ايامها كانت مجرد شعب كبير خرج للتو من سجنه . الدولة فيها لا تزال سديما لم تتحدد معالمه ، وجنينا فى بطن الغيب لا تعرف ماذا يكون عليه شكله او كنهه أو مصيره ، رغم ان كل شىء كان يغلى ذائبا لا تستطيع أن تضع يدك على شىء أو شخص صلب له ثقل وكيان فيه رغم كل هذا فقد كنت لا أستطيع شخصيا أن احول انتباهى عن بومدين ، والابتسامة الجادة التى لا تتغير أو تتطور فى ملامحه ، معتقدا .. بل أكاد أكون مؤمنا ايمانا

لا يتزعزع انه الرجل الذى يملك فى يده مفتاح الموقف . ليس فقط مفتاح الموقف في الأيام ما بعد الاستقلال ولكن مفتاح الموقف فى الجزائر بعد الاستقلال ،وفى الدولة حين يتجمد كيانها السائل الذائب ويصبح صلبا كهياكل الدول، كنت دائما على يقين انه المخرج الحقيقى للرواية وأن المسألة عنده مسألة وقت وزمن ومجرى طبيعى لابد أن تجـرى فيه الامور ولكن دائما وأبدا ستحين اللحظة التى سيوقف فيها باشارة منه الصخب الدائر فوق المسرح ، ويتقدم بنفسـه هذه المرة ليتولى الزمام ..

وهو بالضبط ما كان

أمامة الزنوج في أمريكا

فرق كبير بين ان نقرأ عن قضية كقضية الزنوج في امريكا وبين أن ترى القضية على الطبيعـــة • والزنوج الامريكيون كما رأيتهم بنفسى فى شيكاجو بالذات فى حالة ثورة وتمود أكثر بكثير من الثورات التى تجتاح أى بلد مستعمر ليتحرر • لقد شاهدت في يوم أحد مظاهرة قام بها اكثر من مائة ألف زنجي يغنون بصوت منغم رخيم « الحرية •• الحرية » يغنونها للســـماء وللكنيســة ولناطحات الســحاب فى بلد يعتقد البعض أنه موطن الحرية وراعيها

ولقد مرت المظاهرة من أمامى واستغرق مرورها أكثر من ساعة وكنت طوال الوقت اتساءل ممن يطلب الزنوج هذه الحرية ؟ أمن الحكومة ؟ انها حكومة البيض ، وهى ليست حكومة بيض فقط ولكنها حكومة هؤلاء الـــذين يعتصرون البيض انفسهم ويستغلونهم ويحيلونهم الى عبيد لنظام دقيق رهيب يمثل أذكى ما اســـتطاع الجشع الانسانى أن يقيمه ويشيده وينظمه • أيطلبونهـــا من الكنيسة ؟ ولكن الكنيسة أيضا بيضاء • وصحيح هناك عدد كبير من رجال الدين يعطفون على قضـــية الزنوج ويؤيدونها ولكن المشكلة فى هذا النظام الرأسمالى الغريب

انه يسمح حقيقة بحرية المعارضة ، بل احيانا يجد انهـا مفيدة لعملية الانتاج الرأسمالى نفسها باعتبار أن الفـرد يحس بهذه الحرية المزيفة ويستمتع كالطفل الابله بمجرد وجودها ولو على الورق ولو مع ايقاف التنفيذ ولكن دع هذه الحرية تهدد وجود النظام • دعها ترق الى مستوى المعارضة الحقيقية حتى لتوشك الاسس أن تتمـــايل وتضطرب اذن فستجد الطبقة الحـــاكمة قد كشرت عن انيابها واستعملت الحرس والجيش وكل ما تستطيع أن تصل اليه يداها لقمع هذه المعارضة • وهذا هو بالضبط ما يحدث فى الجنوب الامريكى ، بل ما يحدث فى فيتنام فالغازات السامة ، وقنابل النابالم وقتل الاطفال والنساء وتدمير طاقات مجتمع بأسره لا يمكن أن يكون من سمات أى حرية من حريات العالم حتى الحرية الامريكية ، لا يمكن لدولة تؤمن حقا بالحرية ، حرية الفرد وحرية الشعب أن تفعل ما تفعله أمريكا فى فيتنام ، لا يمكن لدولة أن تكون بوجهين ، وجه حر فى بلادها ووجه قاتل للحرية وخانقها فى بلاد غيرها •• انما هى الحرية المزيفة داخل أمريكا ، تسفر عن وجهها الحقيقى خارج أمريكا • لقـــد ناقشت كثيرا من المسئولين وغير المسئولين فى قضية فيتنام فكان جوابهم شبه المتفق عليه انهم انما يدافعون عن « حرية » العالم الغربى ضد الزحف « الشيوعى » وكنت اقول لهم اية حرية تلك التى تخنق من اجلها ويمثل بها حـــرية شعب ، أية حرية تشترى بدماء الاطفال وبالسناكى تبقر بطون الحوامل ، ان هى الا الفاشية مقنعة • ان الحرية كل لا يتجزأ فاذا أزهقتها فى مكان فأنت على الدوام قاتلهـــا وهذا هو بالضبط ما وجدته فى أمريكا • ان المظـــاهر البراقة للحرية موجودة •• الصحافة تنقد جونســـون • وبعضها يعارض الحرب فى فيتنام • المثقفون يعـــادون

وكأنما بالغريزة الطبقة الحاكمة « وان كانوا يدافعون عن النظام » حتى لقد تلقى جونسون عريضة موقعا عليها من ثمانية الاف استاذ جامعى يطالبون فيها بايقاف الحرب فى فيتنام . التليفزيون بجوار الاعلانات التى تثير الفتيان — يذيع أحيانا ندوات ينقدون فيهاسياسة امريكا الخارجية والداخلية ولكن المشكلة الحقيقية أن هذا كله يدور والالة الرأسمالية الرهيبة سادرة فى غيها « سادرة فى ضرب فيتنام . سادرة فى ضرب حركات التحرر فى كل مكان . تجد بعض الامريكيين يشمئزون من مجرد ذكر وكالة المخابرات المركزية ويهزون أكتافهم ، وفى نفس الوقت يعتمد الكونجرس لهذه المخابرات مئات الملايين من الدولارات لتنفق فى هدم النظم والمجتمعات الاخرى ، باسم الحرية أيضا . الفرد حر فى أن يلتحق بهذه الشركة أو تلك ولكن ادخل فى صميم العمل تجد ذلك الفرد وقد فقد تماما حريته ، اذ لكل فرد يعمل فى الشركة ملف سرى خاص يدون به ما لا يمكن أن يخطر بباله من المعلومات عن أصدقائه ، ألعابه المفضلة ، هوايات زوجته ، ولكل شركة جهاز تجسس على العاملين فيها يستحل لنفسه أن يضع مكبرات الصوت فى حجرات النوم وأن يفتش البيوت وأن يتجسس على المحادثات التليفونية كى يحصل على هذه المعلومات ، وكل بند من بنوده يتدخل فى ترقيته أو حتى فى فصله من الشركة . أجل . الحرية فى الدستور موجودة وفى الظاهر تزاول علنا . ولكنى آمنت أن المجتمع الرأسمالى لا يمكن أن يسمح بالحرية الحقيقية .. اذ لو سمح بها لربما رفضه الناس تماما .. انه يسمح بها فى حدود ، وبالقدر الذى يكسبه المظهر الحر ، وليس أكثر من هذا . أبدا ليس أكثر من هذا

ومن هنا بالضبط تنبع المأساة فى قضـــية الزنوج •
منذ اكثر من مائتى عام وهؤلاء الزنوج يكافحـــون لنيل حريتهم معتقدين تماما انه حسب الدستور لهم الحق كل الحق فى أن يكونوا مواطنين مساوين تمـــاما للبيض فى الحقوق والواجبات ، تضللهم هذه الخدعة الـــكبرى •• بدأوا المسيرة من أجل الكفاح الدستورى لنيل الحقوق • وحقيقة انه فى بعض الولايات وفى الشـــمال بالذات ، حصل الزنوج على الحقوق الدستورية للمواطن فهل معنى هذا انهم اصبحوا مواطنين من الدرجة الاولى ، لا •فالزنوج فى أمريكا لا يزالون ، حتى فى الولايات التى نالوا حقوقهم فيها ، يعاملون بالتحفظ الشديد من جانب البيض مما يجعلهم يكادون يصبحون مواطنين من الدرجة الثـانية • لا يزال هناك الجدار غير المرئى الذى يفصلهم عن البيض، لايزال هناك التوجس والخوف وعـــدم الامان • لا يزال الزنوج يحسون انهم وان كانوا قد نالوا بعض الحقوق الا ان الهوة عميقة •• تبدو وكأن لا بعد لها • وقضيةالزنوج ليست قضية لون فقط ولا قضية سيادة ابيض على اسود، ولا قضية أقلية هى عشر الاغلبية البيضاء ، ولا قضـــية مستوى تعليمى او اقتصادى ، انها اولا واساسا قضية الحرية فى المجتمع الرأسمالى واستحالة التمتع بها ••كنت وانا اتتبع المظاهرة السوداء التى تغنى بالحرية للحرية اراجع فى ذاكرتى كل الاراء التى قرأتها عن ضرورة وقرب حل قضية الزنوج واسخر بها من اعماقى ، فقد بدا لى الحل مستحيلا تماما فى ظل المجتمع الرأسمالى القـــائم على التنافس وعلى سيادة الاحسن او الاذكى او الاكثر تعليما او نقودا •• انه مجتمع صراع يكاد يقترب من الحيوانية من أجل البقاء ، صراع لا مكان فيه للشفقة او للعطف أو

للانسانية ، صراع اذا استحلت فيه انسانا ضعت ٠صراع وان يكن القانون قد نظمه ووضع عقوبات لكل من يخالفه الا أن القانون لا يمكن أن ينطبق على ما تزخر به الاعماق، القانون لا يحاسبك عما يدور فى رأسك ٠ عن عواطفك ٠ انه فقط يحاسـبك على تصرفاتك ٠ وحتى ليست كل تصرفاتك ، ولكن هذا الجزء منها الذى يخالف القانون ٠ واذا كان جهابذة الثورة الرأسمالية فى عصر النهضة قد قالوا : قد أخالفك فى الرأى ولكنى مسـتعد أن أضحى بحياتى دفاعا عن حقك فى ...ل رأيك ٠ فلقد كان هـذا فى القرن التـاسع عشر ، أيام أن كانت العـلاقات الرأسمالية بالنسبة للعلاقات الاقطاعية ، حلما من أحلام الانسان ٠ أما الان وقد نضجت الرأسمالية حتى اقتربت من الشيخوخة فقد تحولت الى نظام يخـاف من نفس قوانينه الاولى ومن نفس شعاراته ومنها الحرية ٠ اذ لو سادت تماما وحقيقة لانقلب الناس على هذا النظام الذى اصبح يعوق تقدمهم كبشر ٠ ذلك النظام الذى تحول الى الرشوة ، فأصبح همه أن يغرق الكادحين فيه بفيض من البضائع الاستهلاكية والمغريات الصغيرة والتوابل ليحبب اليهم القيد ويجعلهم يستمرون فى المضى تحت سلطانه ٠ الا ما أتعس ذلك الانسان وهو يترنح تحت عبء القيد ٠٠ الا ما ابشعه وهو يحاول التملص من انفجاراته العنيفة ٠ لقد قرأت وشاهدت فى التليفزيون قصة ذلك الطالب الذى صعد الى برج جامعة تكساس وصرع ٢٣ شخصا ببندقيته، يخيل الى انه كان يريد أن يصرع شيئا أكبر من هـذا بكثير ، كان يريد أن يصرع ذلك النظام الرهيب المختبىء الذى لا تراه ولا تلمسه ، المستخفى بطريقة لا تستطيع معها أن تحدده ، النظام الذى يحكم علاقات النـاس فى أمريكا ، النظام الرأسمالى الذى لم يعد يصلح لبشر

لابد ان تنتهى

وأنا واقف اشهد المظاهرة كنت اقول لنفسى : لا جدوى ايها الاصدقاء انكم تطلبون الحرية من قاتليها ومزهقيها ، انكم تطلبون المستحيل .. ان الحل الوحيد لقضيتكم ولكل القضايا المعلقة هو أن ينتهى نظام السادة والعبيد ، هو أن تسود الحرية بكل معانيها وابعادها الحقيقية هو أن يتغير النظام ، فى ظل الاشتراكية فقط تحل مشكلة السود والصفر والسمر والبيض . فى ظل نظام اخر للحياة ، وليس ذلك النظام الذى لا يعلو فيه الانسان الا على رقاب الاخرين ، فى ظل نظام اخر غير هذا النظام ، نظام يستطيع ان يرحم ويفهم ، نظام انسانى ، نظام حتى وان لم يستطع ان يحقق لافراده الرفاهية المادية فعلى الاقل يحقق لهم الرفاهية الروحية ، الرفاهية الانسانية ، الرفاهية الجديرة بالانسان ، فالانسان قبل أن يكون حيوانا منتجا أو عاملا ضاحكا ، هو اولا حيوان يحس ويدرك ويؤذيه الالم ويؤذيه أن يؤذى الاخرين ، وحتى يؤذيه ان يبنى مركزه الخاص على حساب الاخرين ، لقد أدت الرأسمالية دورها التاريخى وآن لها ان تنتهى ، وستنتهى بالقوة والقسوة او بالتسليم فلابد ان تنتهى لينتهى الالم فى العالم . ان ألم طفل واحد فى فيتنام ليعادل فى رأيى ويزيد عن كل المتعة التى يحسها عشرات الملايين من مالكى العربات فى أمريكا . وتألم زنجى واحد تنهال عليه عصى الحرس الوطنى « وهم البيض العاديون المسلحون » لا يمكن ان يعادله فى رأيى كل متع هوليود ولاس فيجاس ودزنى لاند

لحظة !!

فجأة وجدت مشغوليتي الخاصة تتبخر وأنساها ، كان لابد أن أصل الى الزيتون فى السابعة تماما وكان الموعد هاما جدا ، ولكن العربة وقفت، كان هناك نهر بشرى هائل يقسم القاهرة قسمين ، والمرور ممنوع .. لا بأوامر رجال البوليس والمرور ، ولكن أولا بحكم هذا البحر الزاخر الذى لا سبيل الى اختراقه . هبطت وضميرى يتململ بالموعد المخلوف ، ولكنى من ناحية أخرى كنت أحس بفرحة الاقبال على تجربة مثيرة . طالما تمنيت أن أقف بين الناس العاديين ، جماهير الشعب أثناء مرور جمال عبد الناصر لأعرف ماذا يقولون ، وبماذا يشعرون . كثيرة هى الصور التى نرى بها الرئيس ، صوره وهو يخطب ، صوره فى قراراته كرئيس جمهورية ، صوره فى مواقفه المختلفة وتصريحاته ، صورته وصوته فى الراديو أو فى التليفزيون ، كثيرة هى الصور ولكنى كنت أتمنى دائما أن أراه من خلال الناس ، من خلال أبناء شعبنا العاديين

حاولت اختيار أقل الامكنة ازدحاما لتتاح لى أكبر فرصة للرؤيا ، ولم أوفق فكل مكان أكثر ازدحاما من الاخر ، وهو ليس ازدحاما فقط ولكنه عملية تأنيس

هائلة حدثت لكل شيء ، لارض الشارع والجدران واعمدة النور والشرفات والمقاعد .واسطح العربات ، كلها استحال سطحها الى بشر وكأنما زرعت لتوها بنبات بشرى سريع التكاثر غطاها ولم يبق ولم يذر حتى انى وجدت صعوبة فى التعرف على المكان وهل هو حقيقة ناصية الساحة ومحمد فريد ، صعوبة سببها هذه الاحراش البشرية التى نبتت فجأة وغيرت جغرافية المدينة

.وقفت كالمذهول ، اتأمل ما حولى ، والهث ، كالغريق فى بحر الناس ، ابدا لم أحس بمثل ذلك الاحساس ، لا للعدد الهائل من الناس ، ولكن لما كان يعتمل داخلهم . كم من مواكب الحكام شاهدناها ، وكم من هتاف وتصفيق ، ولكنه هذه المرة شيء مختلف ، أن فى الناس الواقفين اضطرابا ، انهم لا يستقرون ، قلقون يتحرون ويتفاعلون ، ويضحك بعضهم ويتحدث البعض الاخر ، وفى العيون بريق الترقب ، الصف الاول على شط البحر يصبح بالدفع والتسلل الصف الاخير ، ليعود يدفع هو الاخر ويتسلل ، والشارع المحروس برجال البوليس ، يتسع ويضيق فى موجات متعاقبة ، والواقفون حولى ، بعضهم صعايدة ينطقون الجيم بالدال ، وجدة عجوز لا تكف عن قولها : هو فين يا خويا .. هو فين ؟ وطفل ممتط عنق أبيه وأبوه .واقف فوق سقف الاتوبيس لا يكف عن القول : أهه .. أهه .. وعمال فى فرن يحملون رصص العيش ، كانوا فى طريقهم الى الدكان فوقفوا وارغفة الخبز الساخنة بواخها يتصاعد ، وشحاذ ، أى والله شحاذ ، لا يأبه لرائحتها ويزيحها بعيدا عن وجهه وانفه حتى لا تحول بينه وبين الرؤيا ، بل .وتترى تهديدات الواقفين ببعثرة الخبز أو سرقته أو التهامه ، لا كجوعى ، ولكن فقط لكى يزيلوه

من الوجود ، واخيرا وبالدفع والجذب والتضييق يتراجع حاملو اقفاص العيش الى اخر الصف ، وسائق الاوتوبيس الواقف الطويل الاصلع يقهقه بضحكة عريضة أقسم انى أحسست بها صادرة من قلبه وأقسم انه لم تكن لها سبب ظاهر ولا أخرجتها نكتة ، والعساكر ، أولئك الذين يحمون مجرى النهـــــر من أن تزدحمه الكتل البشرية يبتسمون ، ابتسامات حقيقية ، ويقولون للشعب أبو جلاليب : احنا خدامينكم .. احنا بتوع الشعب . اخيرا ، عرفت الشوارب الغليظة وأصبحت تنطق ، بابتسامة ،كلمة الشعب ، نطقا ، يدفع الصعيدى ابو لبدة الواقف بجوارى ليقول : ده كلاته من فضل أبو دمال فيلكزه زميله مصححا : الرئيس دمال ياخينا ..

سنراه بأعيننا

وقفت ، وبعد أقل من ثانية كانت موجة الانفعـــالات الموجودة أصلا قد غمرتنى وشملتنى ، وأنستنى الزيتـــون والحلمية والموعد ، وأصبح كل اهتمامى مركزا فى وجهى ، وكل اهتمامى بوجهى مركزا ، كالاخرين ، فى أن أعثر على مكان بين العدد اللانهائى من الوجوه أستطيع منه أن أرى .. الشغف العارم المكتسح وجدته يشملنى ويصبح همى الاوحد ان أرى جمال عبد الناصر ، لا جمال الذى عرفناه ، ولكن جمال شعبى ، جمال هؤلاء الناس .. جمال الذى قادنا ببراعة منقطعة النظير حتى أرسانا ، وأرسى جماهير شعبنا ، هذه الجماهير على بر الاشتراكية ، انه من بعيد قادم ، وبعد حين سيهل علينا ، الرجـــل الذى نبـــع منا وبالقوة أقصى المستبدين بنا ، وبكل اخلاص الابن البار أعاد الحقوق الينا ، كاملة يا جمال وغير منقوصة ، ها هو بعد قليل سنراه .. ابننا وأبونا واخونا الذى أصبح معجزتنا ،

بعد قليل سيمر ، من هنا ، من أمامنا ، وسنراه بأعيننا ، وكأنما سنرى بأعيننا احلامنا تتهادى فى موكب حقيقى ، وكأنما سنرى بأعيننا حقوقنا التى كدنا نيأس من ردها وهى ماضية ، نلمســـــها ونعانقها فى شوق ونحييها وترد لنا التحية

ازدادت الحركة الى درجة دفعت كل واقف منا أن يتخلى عن تحكمه فى وقفته ويترك نفسه على سجيتهـا يفعل بها الدفع والجذب والتنافس لالتقاط الرؤية الاولى ما يشاء ، وسمعنا من ناحية ميدان المحطة تصفيقات وعلى الفور تصاعدت من بقعتنا عدة من التصفيق ، ثم اتضح انها « سيرينة » موتوسيكل يمتطيه شاويش من الحرس الجمهورى ، ولم يفعل ما حدث الا أن الهب الترقب حتى ان بائع كازوزة حاول ان يرفع صوته مناديا على بضاعته فتولى من حوله اسكاته فى الحال ، ولو لم يسكت لأغلقوا فمه بالقوة ، وقال الطفل الراكب اباه مرة : أهه .. اهه .. وتصاعد التصفيق وهتاف الصعايدة : فليعيش جمال ، ولكنه كان قائد المرور فى سيارة مكشوفة . وأطلق سائق الاتوبيس ضحكة أخيرة ثم تلفت بعصبية ناحية أوتوبيسه فوجد سطحه فوقه أكثر من خمسين ، وما لبث ان اتجه الى الاوتوبيس فى غضب ظاهر ودخل فى مناقشة غـير مجدية مع الراكبين بلا تذاكر خوفا على سطح الاوتوبيس ، وانتهى النقاش الى أنه صعد معهم ، وبدا كأنه رضى تماما بالواقع حين أفسحوا له مكانا بينهم ، وعادت العجوز التى بدا انها أم صاحب الدكان الذى يقف أمامه وقد أخـرج لها « البنك » وجعلها تثبت أقدامها جيدا فوقه ، عادت تتساءل : هو فين ياخويا .. هو فين .. وسمعنا سيرينة اخرى ، وصفق الناس ، وحدثت حركة هرج ومرج هائلة ،

وازدادت نوبات ضيق الشارع واتساعه رغم أيدى رجال البوليس التى تشابكت ورغم أوامر الضباط ، وكل هذا ولم يكن الموكب قد بدأ أو بدرت له بادرة

لحظة عجز

وكدت أبكى عجزا ، فيا للعالم الغريب الذى تفتح لى ووقفت على أبوابه ، يا لآلاف المعانى المتزاحمة فى خاطرى من هؤلاء الناس ، عن ابى الكبير ، هذا الشعب ، وعن ابنه البطل ، ذلك الزعيم ، ما أروع ما قرأته فى تلك العيـــون النهمة الى الرؤيا والتطلع ، ما أعمق المعانى التى أحسستها وعرق الاضطراب الجماعى تندى به الجبهات ، والقلوب أسمعها تدق ، فى قلبى المنفعل وهو يدق ، فى الترقب، فى التطلع ، لكأننا لا نصدق انه سوف يظهر ، ذلك الزعيم ، لكأنه سيجيئنا من السماء راسا وعلى هيئة خارقة ، ذلك الحب الصادق اين نجده بهذه المحيطية المتدفقة الشاملة ، الحب النابع من النفس الكبيرة ، نفس الشعب الرابض ملايين السنين فوق وادينا ، المظلوم لآلاف السنين ، الذى عرف كيف يقاوم الظلمة ، وما كان أحد يدرى أن باستطاعته أن يحب العدل والعادلين ، او اذا أحبهم أن يعبر عن هذا الحب ، بأقوى مما قاوم به الظلم ، وان يدرك بغريزته اين الزعيم ، وان يعرفه ويشمله ويحيطه ويرعاه حين يتصرف فعلا كزعيم ، ويصبح على استعداد ليفقد المئات والآلاف والملايين ليحافظ على حبة عينه ، على أغلى ممتلكاته ، على قائده ..

وأقبل الهدير ، هدير راعد يكتسح ، هدير لا تخطئه الاذن ، عرفه الطفل وسكت ، ولم تتساءل العجوز عن معناه ، هدير اخرسنا واسكتنا وأوقف على رؤوسنا طير

الدهشة والانبهار ، هدير مختلط شنج الايدى فى قبضاتها وسكن حركة النبات البشرى المتماوج . ومن بعيد ، من أبعد بعيد ، وبأسهل وأسرع مما كان يتصوره أحد ، ورغم عشرات الآلاف من الايدى التى سبقتنا بالارتفاع والتصفيق ورش الملح والتلويح ، طالعنا الوجه الاسمر المبتسم .. ورأينا أياديه ..

ونفلت الزمام

وأقسم ان أحدا لم يع ما فعله فى تلك اللحظة ولا أن كان قد هتف أو صفق أو لوح ، فثمة هدير آخر مروع شملنا واجتاحنا ، هدير نابع هذه المرة ، منا ، هدير حطم الاطار والغى الرسميات وكسر جسر البحر ومزج الماء بالشاطىء والموكب بالجماهير وعجلات الموتوسيكلات بالاقدام وزغاريد « السيرينات » بزغاريد السيدات بجئير الرجال بدمدمة الموتورات برعدة الحناجر ، لحظة ، اقل من لحظة ومعهذا فصورتها الشاملة ضخمة ضخامة لا حد لها ، ضخامة زعيم لوى بيديه عنق التاريخ لحظة مزجت كل شىء بكل شىء وتحولت فيها الاجساد الى أصوات ، والآلاف الى واحد والواحد بمفرده الى آلاف ، بالآلاف وبالالاف ، من آلاف الافواه .. الاف الاذرع تمتد ، والاف الأيدى تتكلم وتصدر آلاف الاصوات ، والجو مشحون يهتز ، الاف الاهتزازات ، والارض والشجر والشرفات والبيوت والأسطح والقضبان استحالت كائنات تنبض بنبض الجماهير وتهتز ، لحظة تداخلت فيها آلاف اللحظات ،وفقد فيها كل شىء ، بمفرده ، قيمته .. وأصبحت قيمتها فى كلها ككل ، فى مجموعها كمجموع ، فى آلاف الانفعالات تنبعث من الافالصدور وكلها فىوقتواحد تخاطبجمال، وكأنما كل منها يتصوره له وحده ، هذا البطل المنتصر

بطله هو ، ملكه ، لحظة لقاء الزعيم بالجماهير ، لحظة تأميم الزعيم ، لحظة فرحة الجماهير بالتـــأميم وفرحة الزعيم بتأميمه ، لحظة روعتها في كليتها ، في حاضرها المدوى الخاطف ، فيما حدث قبلها وبعدها في ســـببها وفيما سيترتب عليها ، في جذورها السحيقة التي تمتد الى آلاف السنين ، وقممها النامية التي ستخترق الاف السنين ، في الاهوال والانتصـــارات ، في الارض للنـــاس وبالناس ، في الوجه الاسمر من ملايين الوجوه السمر ، في المناديل البيضاء في الشرفات في زغاريد الاناث ، في عيد الاطفال في الحادث الذي هز الرجال ، في الخبز الذي تبعثر تماما وسها حامله عنه ، في دقات أقدام الطفل القوية القاسية على صدر أبيه ينبهه لوصول جمال ، في العجوز حين عجزت عن الزغرودة فدعت وخرج دعاؤها حبيبا طيبا يقول : يخليك يابني لشبابك ، ربنا يخليك .. في السماء المدمدمة بهدير الطـــائرات ، في الارض المدمدمة بهتاف صاعد الى السماء ، في مدينة تزأر ، في جمهورية تنتفض ، في شعب مارد يجد أخيرا جـــدا ، نفسه ، روحه ، في زعيم ..

لحظة .. هأنذا عاجز عن وصفها .. عشتها ورأيت فيها ملايين الرؤى والانفعالات ولكن اين هى الان ، أين اللفحة المقدسة وسحرها ، اللفحة التي تحيل الحاكم الى زعيم ، والزعيم الى انسان يهب عمره كله وما هو أكثر من عمره وحياته ليفتدي اللحظة ، ويفتدي الاحساس ، ولكي تظل القلوب تنبض له بمثل ما نبضت ، وأحلام شعبه تحيط به مثلما أحاطت .. والصـــدور ، الاف ملايين الصدور ، تتفتح وتدعوه وترقق من نفســها لتحنو عليه وترعاه مثلما رأيتها تفعل ..

لحظة عشـــــتها وكل ما أملك قوله عنها ، انى بها ، احسست ، ربما لاول مرة فى حياتى بشىء ، حقيقى باهر فى حقيقته الى درجة لا تقبل ترددا أو شكا ، بل شىء اقوى من كل حقيقة أو أى حقيقة عرفتها أو وعيت بهـا ، أقوى من حقيقة وجودى أو حياتى أو ما أومن به ، أقوى من المدينة الكاملة التى رحت أسير بلا وعى فى طرقاتها، أقوى لانه أخلد من أى مدينة أو بلدة أو عقيدة فهو اللحظة التى تخلق المدن والبلاد والعقائد

تجربة عيد جديد

أردت أن أقضى العيد وأقوم بتجربة فريدة فى نوعها ..
والعيد كلمة ، ومناسبة ، وبلسم ، كالدواء ، يعالج الكثير من الجروح والمرارات ..

وأنا ممن يؤمنون ان مصر هى القرية ليست القاهرة ولا الاسكندرية ، ولا (البدل) والفساتين والمستحضرات وارد الخارج والداخل ، وانما الشعب ، ليس الطيب ، فشعبنا ليس طيبا بالمعنى الساذج الدارج السخيف للطيبة ، وانما هى طيبة الذكى أو ذكاء الطيب
وقريتنا ككل قرية فى مصر ، ككل انسان ، كانت لها مشكلتها الخاصة

ومشكلة قريتنا الخاصة أنها مكونة من عائلات ، بعضها غنى ، وبعضها قوى ، وبعضها كثير العدد فقير ، بعضها صاعد ، بعضها بدأ يهبط ، الموجات الضخمة التى أحدثتها الثورة فى حياتنا بدأت تصل الى القرية منذ بضع سنين ، وتغير كثيراً من الاوضاع ، وتجعل من كل قرية صورة مصغرة لبلد بأسره يغلى بالثورة ولا يجد الطريق ، فالعائلة التى كانت تحكم قريتنا ، وهى ليست عائلة اقطاعية عاتية كما قد يتصور البعض الا أنها كان منها

العمدة (الملك) ووزير الداخلية (شيخ الخفراء) وايضا كان منها معظم المثقفين ، وقد جاءت الثورة ، ومع مجيئها بدأت طبقات كثيرة ترتفع فى السلم الاجتماعي ، وبدأ تاجر الاسواق الصغير المتنقل دوما بين الاسواق يصبح له دكان ، والفلاح يرسل ابنه الى المدرسة المجانية وجيوش من المتعلمين وأنصاف المتعلمين والحرفيين تكون ثقلا جديدا ، وتيارا جديدا ، وما كادت تحدث أول انتخابات حتى أسقطت العائلة العريقة الحاكمة وبدأ لاول مرة فلاحون وحرفيون وموظفون صغار يصبحون هم هيئة الاتحاد القومى ، ثم الاتحاد الاشتراكى

ثم تبدأ المشكلة الضخمة حين يحدث الصراع حول من يكون العمدة ، وقد أعفى العمدة القديم من منصبه

باختصار ، بدأ صراع رهيب حول من يحكم قريتنا والى من تئول السلطة ، هل تئول للطبقات الجديدة التى بدأت توجد على نطاق واسع بتفكير جديد ، وبمنطق جديد ، طبقات معظمها لا ينتمى الى عائلات أو تئول للعائلات ، وماذا يكون موقف العائلات من الاوضاع الجديدة ، هل تتحالف مع بعضها ليبقى لها النفوذ ولتقف فى وجه التيار الصاعد ، هل ينسلخ بعضها ويتزعم التيار ضد العائلات المنافسة ، وماذا يكون السلاح فى هذا الصراع ، هل يكون القوة الغاشمة ، هل تكون المسايسة واللين ، هل تكون المقالب والمآزق والشكاوات والنكايات ؟ عشرات وعشرات من الاسئلة والاحتمالات ، غليان غريب مفاجىء اجتاح قريتنا حدثت فيه تحزبات لمبادىء أحيانا ولأشخاص ، وانقسامات ، ومحالفات ، ونقض للمحالفات وأشكال جديدة من أشكال الصراع كان الناس يعجبون لها ويستغربون ويترحمون على الزمن الغابر حين كان

هناك السلام والوئام والخضوع والخنوع ، واليوم لم يعد أحد (يحترم) أحدا ، أو ينزل عن ركوبته اذا قابله ، أو ينتفض واقفا اذا مر عليه ، اليوم كل انسان أصبح يقول للآخر : انا زيي زيك ، أنا مثلك وفي أحيان ، أنا أحسن منك

ولقد ظللت اراقب ما يحدث وانا سعيد ، فهذه الخلافات التي يتصورها أبناء قريتنا ، وهذا الشد والجذب ، وهذه الخناقات والاجتماعات والتحزبات ، هي الثورة : هي عملية الانصهار الضخمة التي تحدث للمجتمع وترفع من درجة حرارته ليعيد تشكيل نفسه من جديد ، وعلى أسس جديدة لتندحر وتزول قيم كانت سائدة ومستشرية ولتنمو قيم جديدة ، وهكذا وبامتداد ذلك الوضع الطبيعي الصحي في القرية الى أكثر بكثير من مداه تحول الى مرض ووباء ، وبدل من ان يؤدي الاختلاف والتحزب الى العثور على الحقائق الجديدة والحلول الأحسن استحال الى مرض اسمه التعصب وانقسمت القرية الى معسكرات متعصبة ، متعاندة ، متحاربة . متشائمة . تعصب لا هدف له الا التعصب ذاته ، بل تنقلب اهدافه في النهاية الى أضرار ، فأي مشروع مفيد يتبناه أحد الاطراف يسارع الطرف الاخر الى الوقوف ضده وافشاله لمجرد أنه صادر عن معسكر مخالف أو معاد ..

وهكذا ايضا توقفت حركة النمو الطبيعي في القرية ، حركة الدفع الذاتي الذي كان لابد أن يؤدي بهذا المجتمع الصغير الى الوصول الى مرحلة التصنيع مثلا كما حدث لمصر المدينة . وحركة الغليان التي كانت تشمل المجتمع كله خمدت بين الجماهير والقاعدة ، وظلت مستمرة بين القيادات ، من يحكم القرية ، لمن تكون السلطة ، استمر

الغليان واستمرت القاعدة تتفرج عليه زمنا ، وتتناقل أخباره باعتباره مصنعا للاحداث فى القرية التى نادرا ما تدور فيها أحداث . ولكن بمضى الوقت ، وبادراك النـاس ان هذا الصراع شخصى محض وذاتى محض ، وهدفه السلطة لا أكثر ، بدأوا يضيقون به ، ثم بدأوا يثورون عليه ، ثورة صامتة فى أحيان ، أو آخذة شكل التعليقات المرة الساخرة فى أحيان .

وجاءت انتخابات العمودية لتشهد القرية أعنف صراع فى تاريخها ، صراع لولا زهد القاعدة الجماهيرية فيه لانقلب الى معركة دموية رهيبة ، صراع جعلنى اوقن اننا قد آن الأوان للتخلص من نظام العمودية هذا وذاك « المرض العثمانى » كما سماه فهمى أبو عقل أحد أعضاء الاتحاد الاشتراكى فى قريتنا . ذلك النظام الذى يتيح لفرد واحد أن يكون « عمدة » على مجموعة جماهيرية ضخمة ، نظام لابد من استبداله بحيث تكون القيادة والزعامة للجنة ، بحيث تكون القيادة والرئاسة جماعية لا أثر فيها لاستبداد الماضى ونظامه الفردى المطلق .

جاءت انتخابات العمودية لتزيد الطين بله ، وليصل المرض حد اليأس والزهد .

وفى ذلك الوقت جاء العيد ، والقرية قد تقرر اقامه وحدة صحية فيها ولكن المحافظة تشترط لاقامتها أن تتبرع القرية بثمانية قراريط لتقام عليها الوحدة ، وقد حاولت لجنة الاتحاد الاشتراكى من ناحيتها جمع التبرعات لشراء الارض اللازمة فقضى التعصب على محاولتها . فما دام الذى سيقوم بجمع التبرعات من هذا الفريق فلابد للفريق الآخر أن يعارض ويرفض ، وميزانية الوحدة معتمدة ، ومبلغ يوازى الخمسة آلاف جنيه مودع فى

البنك فى انتظار الارض ، والمرضى فى القرية كثيرون فى حاجة ماسة ملحة الى العلاج ، والتحزب والتعصب يقف حائلا بين القرية وبين تحقيق هذا المشروع ، وبين بناء مدرسة وبين اقامة ناد ، ومصنع ، وبينها وبين أى خطوه الى التطور والتحضر

وفى العيد ، وكمحايد ، قررت أن أقوم بتجربة فبدلا من محاولة اصلاح الحال بين الزعماء والقيادات والاحزاب . الجأ الى جماهير القرية مباشرة ، الى الفقراء والمحتاجين والعاملين الصغار الذين يكونون الالاف وأن أجمع منهم ، ومن قروشهم ، مبلغ الاربعمائة جنيه اللازمة لشراء الارض

وهكذا بعد صلاة العيد ، قمت أدعو الناس للتبرع وأشرح لهم حيوية المشروع ، والهوة التى تردت فيها القرية بسبب الخلافات . والحقيقة انى مهما تصورت، فلم أكن أبدا أتصور ان الاستجابة ستكون بهذا الحماس ؛ فأنا أكتب هذه الكلمة من قريتنا ، فى ثانى أيام العيد ، وأمامى ترقد أكثر من ثلثمائة جنيه جمعت فى يوم واحد ؛ من قروش الفقراء ، وخمسات قروشهم وأرباع جنيهاتهم، فجأة ، تحول العيد الى حمى ، الى حماس ملتهب من أجل اقامة المستشفى ، وسرت الروح الى كل بيت ورجل ، وفى ساعات كان المبلغ يتكاثر بطريقة مذهلة ، والى ساعة متأخرة من الليل كان باب بيتنا يدق ، وشخص يدخل ، افقر حلاق فى قريتنا ، ذلك الذى لم يتجاوز ما جمعه من قص شعور الناس لحلقة العيد أكثر من خمسين قرشا ؛ يدق الباب ومعه ريال ، أجل عشرون قرشا كاملة يريد ، وبحماس شديد ، أن يضيفها الى قائمة التبرعات . وكان لا يمكن لحماس هائل كهذا الا أن يظل يزحف حتى يدخل على الاعيان والقيادات والاحزاب منازلها ، فاذا بهم هم

الآخرون يتسابقون للتبرع وقد وجدوا التيار الجماهيرى يغادرهم ويتركهم فى خلافهم ويندفع ناحية عمل من أجل القرية كلها ، وليس من أجل من يرأس ، ولا من يتزعم ٠٠

وما أذهلنى أكثر ان هذه الحملة الاستفتائية التبرعية لم تكشف أن الناس يريدون عملا واضحا محددا فقط وانما كشفت أيضا أن الخلافات تظل قائمة مادام ليس هناك عمل وحيثما وجد العمل زال الخلاف من تلقاء نفسه ، ففجأة أيضا ، وبعد خمس سنوات من الصراع الدموى الرهيب الذى سقط فيه قتلى وجرحى وانفقت فيه آلاف الجنيهات وترسبت الاف الاحقاد ٠٠ فجأةوجدت الاطراف المتنازعة تحس ، وقد انسحبت الجماهير من تحت راية التعصب الى راية العمل ، تحس أن خلافها لا أساس له ولا معنى ، وانها غير متحمسة اطلاقا للمضى فى هذا الخلاف ، وان المرشحين للعمودية والذين كان قد تقرر اعادة الانتخاب فيما بينهم على استعداد للتنازل جميعا عن ترشيح أنفسهم وتناسى كل شىء

وهكذا فى يوم واحد ، جمعت القرية مبلغ المال اللازم لاقامة المستشفى وانتهى الصراع حول الحكم

وفى صلاة الجمعةوجدتنى أزف الى قريتنا أسعد خبر تنتظره ، وهو أن جميع قياداتها المتنازعة قد اصطلحت ، وأن السلام قد حل فى القرية ، وأن لها أن تحتفل بالعيد الحقيقى

انها تجربة من قريتنا ، أهديتها لكل قرية حل أو يحل فيها خلاف

السارق والفزورة

جميل جدا هذا النشاط التثقيفي والترفيهي الذي تحفل به حياتنا ، جميل جدا أن يكون لنا ناد للسينما تعرض فيه أروع الاعمال ، جميل أن يكون لدينا تليفزيون يبعث ارساله على ثلاث قنوات ، جميل ان تكون لنا جرائد يومية ومجلات تنشر صورا واحاديث وقصصا ، جميل جدا هذا الجانب من حياتنا ، مهم جدا ولازم وضروري ، ولكن المشكلة أن حياة الناس والشعوب لا تستقيم أبدا هكذا ، بساق ثقافية ترفيهية فنية واحدة ، لابد للحياة كي تستقيم من ساقين ، الساق الاخرى هي الانتاج الجدي الدائب الذي نصنع به بلادنا ونقهر به أعداءنا ونبني الغد .
ولقد كنا قبل حرب الايام الستة نعتقد أن هذه الساق الثانية الجادة موجودة ودائبة العمل ، كنا نعتقد أننا مهما أسففنا في التهريج أو مهما بالغنا في الترفيه عن أنفسنا ، فسيبقى لنا دائما هذا الجانب الجاد ممثلا في محافل علمية جامعية وغير جامعية وفي قوات مسلحة برجال وعتاد وروح علمية حقيقية وفي صناعة وطنية تبني على أسس متينة ، تبنى لتعيش مائة عام أو ألفا أو الى الابد ، ولكن عدوان ٥ يونيو اثبت لنا للاسف الشديد ان هذا الجانب

العلمى الجاد الخطير غير موجود بالمرة ، أو اذا كان موجودا فهو موجود بشكل غير علمى وغير جاد بالمرة ، موجود أيضا بشكل سطحى تظاهرى ترفيهى مثله مثل ساقنا الفنية الاخرى . وقد كنا ننتظر أن يكون أول حركة لنا بعد النكسة هى عملية بناءعاجلة فائقة النشاط ، ليس فقط لقواتنا المسلحة ، انما لهذا الجانب الاساسى من جوانب حياتنا كلها . ولكننا اليوم نتلفت لنجد للأسف أن شيئا من هذا لم يحدث فطاقتنا كلها لا تزال موجهة الى فنون المسرح والاستعراض والاشكال الفنية الجماهيرية الاولى ، لا تزال أهم قضايانا هى حسن الامام وبين القصرين ؛ ومشكلة الاغنية هى المشكلة الملحة التى لا بد أن نفرد من أجلها الصفحات ويدور النقاش بانفعال صارخ وبحدة ؛ وكأنها مسألة حياة أو موت ، لا نزال كما كنا تماما بدليل انى قرأت بعينى رأسي ان مشكلة الفناء فى مصر هى أن بسلامته الاستاذ شفيق جلال مريض بالانفلونزا وانه زعلان لان أحدا من زملائه والمعجبين به لم يسأل عنه ولذلك فقد تطوع وأعطى لباب أبو نضارة رقم تليفونه ليسأل عنه الناس ويحدثهم عما فعلته الانفلونزا الملعونة به

لو كان ما حدث فى ٥ يونيو قد حدث لشعب اخر لترك كل شيء فى حياته ، الثقافة والسينما والحب وأى شيء ونذر نفسه لعملية اثبات وجوده أولا كانسان يستحق الحياة على ظهر الارض ، أو لا يستحقها بالمرة ، انما حدث ليس أمرا هينا بالمرة أيها السادة

هكذا صورونا ، ملايين من الغوغاء التى تركت كل شيء وجرت أمام اسرائيل الصغيرة ذات المليونين . وصحيح أن شيئا كهذا لم يحدث ، ولكن العالم معذور اذا صدق الصورة واسرائيل فى ستة أيام قد أتت على تجهيزات ثلاث دول عربية قامت بها فى بحر عشر سنوات وأكثر

ان أى شعب فى الدنيا ما كان باستطاعته الصبر على ما حدث فى ٥ يونيو ، أى شعب كان لابد سيهب نفسه وكل ذرة قدرة لديه وطاقة فى سبيل محو هذه الصورة المشينة واثبات انه ليس شجاعا فقط وليس أقوى بكثير مما يظن أعداؤه ولكنه قادر على النصر اذا شاء ، قادر ليس فقط على استعادة أرضه وحقه وسلاحه ولكنه قادر على أن يصنع بأرضه ومعداته ومؤسساته وسلاحه حضاره تشع بالنور وتضيف الى تراث الحضارة فى العالم

وما دامت الفوازير قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من حضارتنا فى العصر الراهن ، ما دامت قد أصبحت مخزن ١٣ والسر الذى سنغزو به الحضارات الاخرى ونهزمها مثلما هزمت الحضارة الفرنسية أوربا الرجعية بمبادىء ثورتها ، وغزت انجلترا العالم بثورتها الصناعية وأمريكا بالتكنيك وروسيا باللينينية ، ما دمنا سنغزو العالم بفوازيرنا فاليكم فزورة يحتار العقل فى حلها ويعجز ، الفزورة هى :

كيف استطاعت كوريا الشمالية وتعداد سكانها (١٠) عشرة ملايين نسمة أن توجه هذه اللطمة الرهيبة للمارد الامريكى العملاق . كيف استطاع بلد صغير هذا شأنه ، هذا البلد الفقير الذى يبلغ متوسط دخل الفرد فيه مبلغا أقل بكثير من متوسط دخل الفرد فى أى بلد عربى ، كيف استطاع بلد كهذا أن يهلك من اعدائه فى الحرب الكورية مليونا و ٩٣ الفا ما بين مدنى وعسكرى وقتيل وجريح بما فيهم ٣٩٧٫٠٠٠ جندى امريكى وأن يسقطوا ١٣٫٠٠٠ طائرة ويتلفوا ٣٠٠ دبابة و ٥٥٠ بارجة حربية ، وكيف استطاعوا اليوم أن يأسروا باخرة التجسس هذه وأن يمرغوا الانف الامريكى المهيب فى الوحل ؟

بعض المتسرعين سيقولون انها تفعل هذا اعتمادا على

حلفائها فى الصين والاتحاد السوفييتى ولهؤلاء أقول أننا ايضا بوسعنا الاعتماد عليهم بل واعتمدنا عليهم . بعض الناس سيقولون ربما الفرد الكورى أشجع من الفرد العربى ولهؤلاء أقول أنه حين يأتى الامر للشعوب فلا يوجد شعب فى العالم أشجع من شعب ، فقد يوجد أفراد جبناء لدى كل شعب .. هذا صحيح ولكن هناك دائما عددا أكبر من الشجعان بحيث أن مستوى الشجاعة يتساوى لدى كل الشعوب

ما هو اذن حل هذه الفزورة الغريبة : كيف تملك كوريا ذات العشرة ملايين هذه القدرة الخارقة على مواجهة العدوان الامريكى بينما لا نملك نحن ذوو الثمانين مليونا قدرة مماثلة ليس على مواجهة العدوان الامريكى نفسه وانما على مواجهة ذيل من ذيول العدوان الامريكى ، اسرائيل ذات المليونين ؟! ..

ان حل الفزورة ، أيها السادة المستمعون ، واضح وبسيط . الحل ان العشرة ملايين هؤلاء لهم قيادة واحدة لا تخاف أمريكا وتربى شعبها على الاستهانة بها

ان الشعوب لا ذنب لها أبدا فهى اذا طلب منها البذل تبذل ، اذا طلب الموت تموت ، اذا طلب الصبر والاحتمال تصبر وتحتمل ، المشكلة دائما هى فى القيادة ، ليس حتى على مستوى الدولة أو الامة العربية كلها وانما حتى على مستوى المدينة والقرية والوحدة . ان مشكلتنا ، تلك التى تضعفنا الى حد العدم ، تلك التى تجعل قوتنا تتضاءل الى حد لا نستطيع معه مواجهة ذيل من ذيول الاستمار

ماذا لو قامت الشعوب العربية بالجهد . ماذا لو انعقد مؤتمر للقيادات الثقافية والمهنية والعمالية والزراعية فى عالمنا العربى ، مؤتمر مسئول يساهم فى حمل المسئولية مع الملوك والرؤساء ، مؤتمر يجعل القضية ليست فقط

مسئولية الملوك والرؤساء ، وانما يجعلها مسئولية الشعب كله بكل فئاته وطوائفه ، اما أن نبقى جميعا مثقفين وعمالا وكتابا وقادة وحكماء ومفكرين ، ان نبقى كل امكانيات هذا الشعب الفكرية والعقائدية والكفاحيــة والثــورية وهى ضخمة هائلة الضخامة ، تبقى كل تلك الامكانيات ويبقى معها الشعب فى مدنه وقراه ومزارعه ومصانعه

ان على القيادات الشعبية فى كافة الدول العربيــة أن تتحرك لكى يتحرك الشعب العربى ويحمل القضية ويوجد كعامل حاسم فى الموقف ، فالشعب الى الان غير موجود ، القضية فى حاجة الى كتف كل فرد من أفراد الشعب العربى والى ساعده

ان على الشعب العــربى أن يدخل لنخــرج من دائرة الركود والاستسلام تلك التى طالت وأصبح السكوت عليها أمرا لا يطاق ولا يحتمل ، وخــير لنا أن ندخــل الشعب العربى بارادتنا اى بارادة رؤسائه وملوكه ، خير ألف مرة من أن ننتظر ونسوف حتى يدخل رغما عن هذه الارادة ، فلم يعد أحد يطيق الانتظار

والله حتى لو اضطررنا للمشى لقنــاة السويس وغزة والقدس بأيدينا الجرداء وهراواتنا ، ولتحصدنا المــدافع ما تشاء ، خير ألف مرة من أن نظل هكذا واقفين فى انتظار « جودو » أو « يارنج » الذى لن يحل المشكلة ..

فلنفق ، ولنؤمن أن انتظارنا لحل القضية على يد هيئة الامم أو الدول الكبرى عبث وسخف وضياع للوقت . حل القضية فى يدنا وفى هراواتنا ان عز الســلاح ، وفى ملايينا الكثيرة المشتتة الجهد المكدسة فى مدننا وقرانا فاغرة الافواه تائهة لا تعرف ما العمل

فلنتحرك بها صوب القضية قبل أن تتحرك من تلقاء نفسها

الأخلاق القديمة
خيانة عظمى

قرأت بامعان تفاصيل قضية امتحانات الثانوية العامة .. أصبت بعد قراءتها بدهشة ، فالمتهم الاول ، ذلك الموظف الكبير فى المطبعة السرية ، لم يقدم على جريمته بدافع المال أو الرشوة أو المتعة ؛ أقدم عليها بدافع أغرب، بدافع الشهامة ومحاولة مساعدة ابن صديقه . والمتهم الثانى أو الثالث الابن لم يقدم على جريمته هو الآخر ويوصل الاسئلة لابن عمه الا بدافع غريب آخر ، دافع الحرص على مصلحة ابن عمه ..

دوافع غريبة لاشك لارتكاب جريمة ، لا تخفف (نظافتها) الظاهرة من بشاعة الجرم ، بقدر ما تضاعفها

وليست هذه أول ولا آخر جريمة ترتكب فى بلادنا بسبب هذه الدوافع المجيدة ، فالامثلة كثيرة وتقع تحت سمعنا وبصرنا كل يوم ؛ والشيء الخطير انها تدل على أن بعضا منا لا يزال يحيا فى حدود اسرته ومعارفه واصدقائه لا يعرف غيرهم ، ولا يقيم وزنا لغيرهم ، هم الدائرة الوحيدة التى يتحرك داخلها ويحسب لها حسابا .. أتتصورون هذا ؟ بعد كل معاركنا التى خضناها كشعب ، وبعد كل هذه الاحداث الهائلة التى كانت كفيلة باذابة كل

ما بيننا من حدود ذاتية وشخصية ودمجنا على هيئة أمة واحدة وشعب واحد ، بعد كل هذا لا يزال بعض منا لم يحس بأنه قد أصبح فردا فى شعب كبير ، ولا تزال دائرة أسرته ومعارفه وبلدياته هى شعبه الوحيد الذى ينتمى اليه ... الخيانة فى نظره أن يخون هذه الدائرة الضيقة .. والشهامة أن يقدم على عمل من اجلها حتى لو أودى عمله هذا بمصلحة بقية الشعب

هؤلاء العائليون لا يزال يحفل بهم مجتمعنا ولم ينقرضوا بعد ، ولا تزال علاقتهم بنا كشعب علاقة خوف فقط وربما لهذا السبب أوصى الموظف ابن صديقه أن يتكتم الامر حتى لا يفتضح أمره ، أى تصل اخبار فعلته (الشهمة) الى اسماع المجتمع الكبير ويعاقبه عليها ..

ان الحكم الذى صدر على الجناة فى هذه القضية درس من الواجب أن يتدبره كثيرا أولئك العائليون الذين من الممكن أن يكونوا قد ارتكبوا جرائم ضد مجتمعهم الكبير من اجل مجتمعاتهم الصغيرة الضيقة ، أو الذين لا يزالون يرتكبون جرائم كتلك ، أو ليس لديهم مانع من ارتكابها على الاقل .. انه درس لان يضع نفسه قبل عائلته ، وعائلته ومعارفه قبل مدينته أو قريته ، وبلدته الصغيرة قبل بلاده الكبيرة .. آن الاوان لكى يدرك هؤلاء أننا نحيا فى وطن قد تحرر وأصبح كله لنا ولابد أن يضع كل منا وطنه هذا قبل بلدته ، وبلدته قبل عائلته ، وعائلته قبل نفسه .. وهذا هو الفارق الاساسى بين ولائنا بالامس وولائنا اليوم ، بيننا كعبيد مستعمرين فى الماضى واحرار مستقلين فى الحاضر ، فارق يجب أن يفكر كل منا فيه ويتأمله ويغير مثله فى الحياة وفلسفته واهدافه على هداه ، والا استيقظ يوما ليجد نفسه مقبوضا عليه بتهمة

الخيانة لشعبه ومجتمعه جزاء عمل بطولى قام به نحو اسرته او نفسه او الدائرة الضيقة التى يعيش فيها

وشيء آخر

درس ثان خرجت به من قراءتى للقضية ..الدرس ان ما يحدث خلف الناس لابد أن يظهر يوما أمامهم .. ان كثيرين منا يقدمون فى أحيان على أعمال مخجلة لعل ما يدفعهم أساسا لارتكابها انهم يعتقدون ان أحدا لن يعرفها وان أمرها سيبقى سرا لا يصل اليه كائن من كان. الا يعرف هؤلاء ان العمل الخبيث تفوح رائحته مهما تكتم صاحبه الامر ، وانه اذا كان للانسان أنف واحد أو عينان فالناس لهم ملايين الانوف والآذان والعيون مصوبة فى كل اتجاه ولا يمكن أن يستغفلهم أو يضحك عليهم أحد ، هم الذين يضحكون دائما آخر الامر ، ويضحكون كثيرا ؛ يضحكون على الجبناء الذين يطلون وجوههم بأقنعة العفة والطهر بينما هم فى الداخل أشد بشاعة من القتلة والمجرمين .. لقد أقدم الموظف المحترم على فعلته مثلا وهو ضامن أن الامر لن يتعدى حدود صديقه وابنه ولم يكن ليعتقد ابدا أو يحلم أو يتصور أن الامر سيشيع الى تلك الدرجة ، سذاجة لا شك ، ودفن للرؤوس فى رمال الخفاء التى لا تخفى شيئا ، فما يحدث من وراء الظهور لابد أن يظهر يوما ، قد يظل خافيا لفترة ولكنه لن يظل خافيا الى الابد ، ولابد لكل خاف أن يعرف ، وقد يعرف ببشاعة أو بطريقة لم تخطر على البال ، او دائما هناك طرق لا تخطر على بال أولئك الذين يتسترون بظهور الناس لارتكاب جرائمهم ، أو دائما يفاجأون بالاضواء تنصب عليهم ذات يوم من كل ناحية وهم واقفون ، خجولون ، محاصرون فى ركن .. لماذا لا نفكر فى طريقة

أشرف وانظف للسلوك ؟ لماذا لا يضع كل منا فى اعتباره أن يتحمل مسئولية ما يفعله من وراء الناس .. انها ليست شجاعة .. ولكنها ألف باء تصرف أى كائن يريد أن يكون له شرف أن يسمى بانسان ، تحمل المسئولية ، وأولهـا مسئولية الخطأ .. لماذا نظهر للناس محاسننا دائما ونخفى أخطاءنا بجبن ؟ لماذا نصر على أن يرى الناس نصف وجهنا فقط ونكابر بسخف لكى لا يروا النصف الاخر ؟ انهـا ليست قيما جوفاء أطالب بها ، ولكنها فى الحقيقة مسألة عملية محضة ، فالمسئولية ، بما فيها مسئولية الخطـأ ، لا يستطيع أحد أبدا أن يهرب منها .. اننا نتحملها سواء أردنا أم لم نرد ، الفرق اننا حين نتحملها من تلقاء أنفسنـا يصفح الناس عنـا وينسون ، أما حـين نكابر ونوغل فى الهرب منها ، فانها لا تهرب منا ، ودائما يأتي اليوم الذى نجبر فيه على حملها ، علانية ، وعلى رؤوس الملأ ، والعار يجللنا .. هو نفس الفرق لو كان الموظف الكبير قد تقدم من تلقاء نفسه واعترف للوزارة بخطئه وبما فعله وطلب أن تتغير الامتحانات ، وبينه اليـوم ، ورأسـه منكس ، وظهره الى الحائط ، ونظرات الاشمئزاز تحيط به من كل جانب ..

انى لأشفق على الكثيرين من نفس المصير ..

أدب ثقيل الدم

لتوى انتهيت من الاطلاع على بضع مجلات شهرية بعضها من القاهرة والاخر من بيروت ، وللمرة الألف أحس ذلك الاحساس الذى يراودنى كلما طالعت كثيرا من المقالات التى تنشرها المجلات والجرائد ، وسأكون صريحا وأنقل بالضبط ذلك الاحساس ، ومهمتى سهلة ، فاحساس واحد يشملنى طيلة القراءة ، احساس ، وليعذرنى الزملاء والاخوان ، بالتصنع ، و .. « التأدب » من أول كلمة أحس وكأن الكاتب قد أدرك انه بسبيله الى القيام بعملية غير عادية وان عليه أن يسوك فمه مثلا بمسواك ،ويتأنق ، ويجلس جلوس الكاهن الاعظم أمام آلاف المريدين والمتعبدين ، محترما فى جلسته ، محترما فى اشاراته وايماءاته ، كلماته لابد أن يختارها من النوع الجاد الوقور، وأسلوبه لا بد أن يحوى كثيرا من أمثال هذه التعبيرات : وعقيدتى أن الوضع لا يتأتى .. أو اذا نحن نظرنا الى هذا المنهج من زاوية أخرى لالفيناه كذا وكيت

وبحكم هذا الاحترام الزائد والطقوس ليس من العجيب أن تجدهم قد أطلقوا اسما ثقيل الدم على ما يكتبون ، اذ هم يسمونه « أدب المقال » ورغم احترامى للتسمية ولهذا

النوع من « الادب » ولكل انواع الادب ولكتاب أى نوع وكل نوع الا أنى لا أزال الى الآن لا أفهم ذلك المسمى بأدب المقال ، فأنا اعرف مثلا ان الكاتب حين يريد كتابة قصة يصبح هدفه أن يكتب قصة ، وحين يريد تأليف قصيدة يقول شعرا ، اما المقال فهو لا يلجأ اليه الا حين تتراكم لديه أفكار غير قصصية وغير شعرية وغير مسرحية ، يعنى عنده اخبار مثلا ، أو معلومات أو وجهة نظر معينة أو حقيقة علمية يريد ايصالها للقارىء . هو حينئذ ينبذ كل الوسائل غير المباشرة ويلجأ الى الوسيلة الوحيدة المباشرة ، المقال . بمعنى أدق اذا كان أدب القصة تقاس جودته بما فيه من فن القص ، والشعر بما فيه من تعبير شعرى ، فأدب المقال مقياس جودته ما له من قدرة على الايصال المباشر والشفافية ، والخلو من كل ما قد يعوق الافكار عن القارىء ، أى أدب أن تقول « مايفهم » وكلما قلته بأبسط وأسرع وأشف طريقة ، اقتربت من روح أدب المقال . بعض اخواننا فهموا ولا زالوا يفهمون أدب المقال على أنه نوع لا « تنقل » فيه أفكارك الى زملائك وقرائك ولكنه النوع الذى تتخذ فيه من زملائك وقرائك موقف المعلم والمدرس وتصطنع فيه وقار الاستاذ . كارثة المقالات عندنا أنها دروس ، وليتها من أساتذة كبار حقا ، معظمها فى الحقيقة من تلاميذ يحاولون أن يوهموا القارىء بأستاذيتهم ، ايهاما متعجرفا محشوا حشوا بأسماء الكتاب الاوربيين والفلاسفة ، مظهرا عضلات الثقافة فى مراهقة صبيانية تحس ان الكاتب خلالها يتقيأ محصول قراءاته قبل أن يصل الى بلعومه وقبل أن يهضمه ويصبح جزءا لا يتجزأ من كيانه ونفسه ، أنه محصول ضئيل يعمد الى اظهاره وتضليل القارىء به ، وكل همه أن يثبت أنه عالم ويثبت لقارئيه انهم جهلة ، حريصا فى الوقت نفسه على

طقوس الكتابة اكثر من حرصه على سبب الكتابة وموضوع الكتابة ، والمهم فى اسلوبه هو بلاغته وليس مهما ابدا طعمه ، والهدف الوحيد أن يخرج القارىء من قراءته وهو يحمل للكاتب كل الاحترام والتقدير حتى لو خرج من المقال كما دخل

ولعله لهذا السبب تتشابه كثير من المقالات التى نراها فى الجرائد والمجلات تشابها غريبا وكأنما كتبها كاتب واحد . لا تجد فارقا بين مقال كتبه شيخ وآخر كتبته سيدة أو انشاه شاب ، الكلمات مرصوصة بنفس الطريقة، واظهار الحجج يتم على نفس النسق ، والخيط المستعمل واحد ، يبدأ بالمقدمة يليها الدخول فى الموضوع ثم قرب النهاية تجد الكاتب يلتقط أنفاسه ، وجميعا يفعلون هذا بنفس الطريقة ، ويقولون : وبعد .. او اجل .. الى آخره ..

وعبثا تحاول أن تبحث عن ذاتية الكاتب فيما يعرضه من موضوعات . وبالذاتية لا أقصد أن يفرض الكاتب ذاته على الموضوع الذى يتناوله ، ولكنى أريد أن أحس أنه هو وليس أحد غيره ذلك الذى يعرض أفكاره ، أريد أحيانا أن أراه وهو يفكر وهو يحاول بطريقته الخاصة أن يصل الى استنتاج أريد أن أستمتع بالطريقة التى يرتب بها افكاره وسرعة بديهته فى ايجاد الحل ، فاذا كانت ميزة الشاعر تتجلى فى كونه يعالج الموضوعات ويعبر عنها بالشعر ولكنه يفعل هذا بطريقته الخاصة ، فكذلك كاتب المقال لابد له هو الآخر أن يبحث عن طريقته الخاصة فى تناول الحقائق ، فكتابة المقال فن ، وكل فن فى حاجة الى موهبة أو بالميت فى حاجة لدراسة ، وقد كنت أعجب وانا طالب حين أقرأ قائمة الشهادات المدونة تحت أسماء كبار الجراحين والعلماء الذين يؤلفون مراجع العلم والطب

واجد ان كثيرين منهم قد حصلوا فوق شهاداتهم العلمية ، وفقط من أجل أن يجيدوا كتابة المرجع

وفى هذا المجال أيضا لا أزال أيضا أذكر كيف أننا كنا نحضر محاضرات يلقيها المعيدون والمدرسون والاساتذة وكنا نلاحظ أن أسهلها فى الفهم جميعا هى محاضرات الاستاذ فقد كان يبدو وكأنه طالب أو رجل شارع متحدث عن أعقد المسائل بأبسط أسلوب ، وكان أعقدها وأعسرها على الفهم محاضرات بعض المعيدين حين كانوا يحاولون أن يظهروا فى ثوب الاساتذة المعلمين ، تماما كبعض اخواننا من كتاب ذلك النوع الذى ثقلوا دمه .. أدب المقال ..

لمن تدق الأجراس؟

كثيرا ما أسأل نفسي : هل فقدت الكتابة وفقد الكتاب أهميتهم فى مجتمعنا ؟ نحن لا نحيا حياة الشعوب العادية. لا تمضي حياتنا فى سلاسة وتؤدة وانما نحن نحيا فى فترة استثنائية فى حياة الامم ، فترة بناء الدار وتصنيعها وكفالة حق العمل والحياة والامن لافرادها . فترة يبنى فيها كل شيء أمامنا ونحس البناء وهو أساس ثم وهو يعلو ثم وهو يتم ويصبح حقيقة مجسدة لا تقبل الجدل . فترة المجد فيها للبناة والمهندسين والمحاربين والعمال والانتصارات

فى مثل هذا الجو النفسي ، وفى الفترة التى امتلكنا لأول مرة كشعب ارادتنا بحيث أصبح من حقنا أن نريد وفى قدرتنا أن نحقق بين يوم وليلة مانريد ، فى فترة لا نحلم فيها وانما نحن مشغولون الى أقصى طاقتنا بتحقيق الاحلام ، فى فترة الكل فيها ثوار ، الحكم فيها ثورى ، والشعب ثائر وحتي الافراد كل منهم غير راض عن نفسه ووضعه يريد تحقيق ذاته وتحسين حاله والمطالبة بكل حقوقه ، فى هذا المهرجان الثورى الحافل البانى الصاعد المكهرب بالسرعة يريد أن يعوض فى اللحظة ما تأخره من سنين

أين يقف الكاتب من هذا كله ، وماذا عليه أن يفعل ؟ وماذا عليه أن يقول ؟

انني أكاد أسمع الاصوات الهاتفة المتحمسة وهي ترد

على السؤال وتجيب . ان على الكاتب أن يتقدم الموكب ويحمل القلم فى يده كما يحمل اخوه المدفع او (البنسة) وأن يساهم فى معركة البناء القائمة على قدم وساق . ان الاجابة تأتى دائما هكذا بسرعة وحسم وبساطة . على الكاتب أن يحمل قلمه ويخوض المعركة ويصور بطولة البنائين وشجاعة المحاربين وزحف الشعب المقدس .. بمعنى أدق على الكاتب أن يقوم بدوره كمهلل ومحفز ومحمس ، على الشاعر أن ينشد القصائد قبل المعركة ليثير الدماء فى العروق وعليه بعد المعركة أن يمجد بطولات من خاضوها ، وعلى القصصى أن يصور بفنه النموذج الايجابى البطل كى يحذو المواطنون حذوه . لو هكذا فعل الشاعر والكاتب والفنان لأصبح الفن جزءا لا يتجزأ من معركة البناء ولأصبح حقائق وانتصارات مجسدة مثله مثل أى مصنع يقام أو أى سلعة نفخر أننا صنعناها بأيدينا . هكذا يجيبك المتحمسون ببساطة ، وببساطة أيضا يعزون تخلف أشكال الفن والكتابة وعدم أخذها المكانة الجديرة بها فى حياتنا الى تخلف الفنانين والكتاب وتقاعسهم عن القيام بهذا الدور

فهل القضية بهذه البساطة ؟ وهل حلها يتم بهذه السهولة ؟ بمجرد أن يشد الكتاب والفنانون (رحيلهم) ويخلعون ثياب التواكل والفتور وتعديهم موجة الحماس ؟

الفن ليس نصائح تربوية

الواقع ان القضية أبدا ليست كما يتصور هؤلاء البعض فالخطأ الاساسى الذى يقعون فيه هو أنهم يتصورون بادىء ذى بدىء ان الكتابة أو الفن دورها قاصر على تمجيد العمل البشرى وعلى دفع العاملين الى العمل وحفز هممهم . انه دور نوع بعينه من انواع الفن والادب ، دور

الادب المدرسي والتربوي والحواديت التي تقال للاطفال لتحبب اليهم الخير وتبغضهم في الشر . انه نفس الخطا الذي يتورط فيه دعاة الفن للفن والموسيقى من اجل الموسيقى وحدها وليس من أجل ماتحدثه في النفس والناس

ان الادب والفن ليسا نصـــائح تربوية ومدرسية من ناحية وليســا فنا وأدبا من أجل الفن والادب فقط .. ان الاداب والفنون أهداف كبرى من أهداف الحياة الانسانية نفسها . مثلها مثل لقمة العيش والرغبة في التناسل وحب الخير وازدراء كل ما هو شر . ان الفن جزء لا يتجزأ من الحياة ، ومن أهدافها ، لم يوجد مع الانسان البدائي وحتى الحيوان عبثا ، ولا عبثا كل تلك الاهمية والقداســة التي يكنها له الجنس البشري في كل المراحل والعصور . ان الانسان بغير فن انسان ناقص ، بل بغيره لا يمكن أن يكون انسانا ، وليس في هذا أدنى مبالغة فلنتصور حياتنا وقد خلت من الموسيقى والاغاني والروايات والقصص والرقص والدموع والضحكات ، لنتصورها بغير اذاعة أو مسرح أو سينما أو تليفزيون أو جلسات وتجمعات وضحكات . ان الخيال نفسه لا يطاوعنا على تصورها . وصحيح ان الفن لابد أن يدعو لشيء ما ولابد أن يحتوي على ترفيه ما ؛ ولكنه أبدا لا يمكن أن يكون فنا اذا اقتصر على الدعاية لشيء ما حتى لو كان هذا الشيء أقدس المقدسات ، أو الترفيه عن الناس حتى لو كان هؤلاء الناس هم جماهير الشعب بأسره ، ان في الفن الحقيقي عناصر أخرى وأشياء تخاطب ما هو أعمق من حياتنا اليومية أو السنوية وما هو أعمق من اثارة عواطفنا الوقتية من مرح أو شجن أو بكاء ، كل ما في الامر أننا لم نكتشف بعد ماذا تحدثه بالضبط هذه العناصر في نفوسنا ولماذا نحتاجها كل هذا الاحتياج بحيث لا نستطيع الحياة كبشر بدونها ، ونحن لم نكتشفها

بعد لان انتاج الفن واستهلاكه ليست عملية ساذجةبسيطة كما يسذجها ويبسطها هؤلاء الذين ينعون على الكتاب والفنانين تقاعسهم وانما هى عملية معقدة لغزها من لغز الحياة نفسها وسرها

بناء فى حد ذاته

المشكلة اذن أن الفن ليس جزءا متمما ومجملا لعملية البناء الاقتصادى والاجتماعى التى نقوم بها ويستغرقنا الحماس لاتمامها ، المشكلة ان الفن نفسه بناء فى حد ذاته، هدف لا يقل خطورة واهمية عن صناعاتنا الخفيفة أو الثقيلة بل هو أخطر منها بكثير لانه اذا كان يمت الى صناعة ما بصلة فهو يمت الى صناعة الانسان .. أثمن وأغلى وأرقى ما نمتلكه

المشكلة اننا نوجه الى الكتاب والفنانين الدعوة الخاطئة فبدلا من أن ندعوهم الى بناء فنوننا وانتاجها ونطلق حريتهم فى اثراء هذا البناء واعتصار أنفسهم لاقامته ؛ بدلا من هذا ندعوهم الى التخلى عن ذلك الدور المقدس كى يقوموا بتمجيد المصانع والمبانى والمشروعات نفس الخطأ الذى نرتكبه حين نطلب من مهندسينا مثلا أن يتخلوا عن دورهم فى تشييد المصانع واقامة المشروعات الحيوية لنا كى يقيموا مشروعات ومصانع الهدف منها تخليد نهضتنا المسرحية أو الموسيقية أو الادبية

ويبدو أننا لا نريد أن نتعلم من التاريخ أو حتى من التاريخ القريب ، والتاريخ يحدثنا عن ثورات قامت فى بلاد من أجل التصنيع والكفاية والعدل وبنت هذه الثورات موقفها من الفن والادب على المفهوم الساذج السطحى الدعائى التربوى للفن والادب فكانت النتيجة أنه بعد نجاح تلك الثورات اكتشفت الشعوب أنها أقامت بناءات ضخمة

عالية لكل شيء ولكنها نسيت أو اجبرت على تناسى أهم شيء .. بنائها الروحي والفني ، وهكذا لم تخسر تلك الثورات تراثا فنيا حقيقيا فقط ولكنها خسرت ، وهذا هو الاهم ، التفاعل بين انسان الثورة وهذا التراث المفقود، بحيث حكم على جيل أو اجيال أن يخرج الى الوجود كسيح الروح ، وهذا ليس خطأ بل هو فى رأى العلم والحياة والثورة جريمة ، جريمة تكرر حدوثها للأسف في التاريخ ومنذ أقدم العصور .. ان الحضارة التركية استمرت مسيطرة عسكريا وسياسيا على أهم أجزاء العالم ما يقرب من الألف عام ، ولكنها كانت حضارة بلا فن والنتيجة أن التاريخ لايذكرها حتى كحضارة وانما يذكرها كفترة سوداء من فترات القهر والطغيان ، بل نحن حتى حين نصفى الحضارات لنعرف ماذا يبقى منها للتاريخ نجد أن كل الاشياء تزول وتتلاشى ويلفها العدم الا ماحققته تلك الحضارات فى الفن والادب والعلم باعتبارها الثمرات الحقيقية التى تستخلصها البشرية من أى تطور أو تمدين أو ازدهار

هل من المعقول اذن اننا فى ثورتنا الحضارية الكبرى هذه نكرر نفس الخطأ الذى حدث ونستمع الى فهم بالغ الخطل والشطط لدور الفن والادب.. لنخرج للعالم حضارة كسيحة الروح

ان الصناعات والكهرباء والقوة العسكرية ليست أهدافا بالمرة ، انها ليست سوى وسائل لتأمين انساننا وتعليمه وتطويره كى تتبدى قدرة هذا الانسان على الخلق والابتكار ، كى يزهر انساننا ويثمر فنا وأدبا وعلما وثقافة، كى تضيء حياتنا لامن الكهرباء أو الذرة وانما بالنور الصادر عن عقل انساننا ووجدانه وقد تحرر واطمأن

الاولوية للأثر المباشر

ان الخد. يحدث أحيانا بحسن نية ، وبحسن نية يعتقد بعض الناس أننا مادمنا فى ثورة بنــاء فلابد أن يكون كل ما يبنى واضحا جليا ظاهرا للعيان له أثره المبـــاشر الملموس فالمصنع ينشأ اليوم ليعمل فيه العمال غدا وبعد غد نتسلم منتجــاته كتلا وطــرودا وأحجاما ملموســة ونستخدمها وتصبح جزء من حياتنا . ولكن المنشآت الفنية والادبية أشياء قد لا تكون باهرة الحجم والمظهر ولا هى سريعة المفعول ، والذى يروج منها ونحتفل به هــو النوع الضخم الواضح الاثر والمفعول ، أوبرا مثلا يتكلف اخراجهــا الشىء الفلانى وفيها غناء ورقص وباليــه أو استعراض يضم ألف راقص وراقصة ، أو مسلسلة اذاعية تستغرق شهرا أو عاما او ربما اعــوام ، أو رواية بالغة الضخامة وليس مهمــا لو كانت فقــيرة فى الخلق . ان ما نحتفل به هو الضخامة وسرعة المفعول وكل مانستطيع ان نطلق عليه « انتصار » ، ولهذا نحن على استعداد أن نطلق اسم سباح او لاعب كرة على شــاطىء بأكمله أو شارع بينما لا يمكن ان يحظى بهذا الشرف مفكر أو عالم أو فنان ربما تغير بضع صفحات يكتبها من مجرى حياتنا وحياة اولادنا . ذلك أن البناء الفنى أو العلمى أو الادبى لا تحفه فى الغالب أكاليل الانتصــار ولا يقيمه صاحبــه ليصبح نجما من النجوم أو بطلا من الابطال وانما يقوم به أناس جعلوا من فنهم أو علمهم رسالة وهبوا انفسهم لها قدرهم أحد أم لم يقدرهم ، وصفوا بالبطولة او اتهموا بالخيبة والتقاعس

المقياس الوحيد !

ان بناء حياة فكرية وثقافية وفنيــة حقيقيــة تكون

الزهرة والثمرة الاصيلة لحياتنا كلها وحضارتنا مهمة بالغة المشقة فى حاجة الى رهبان وقديسين وأشق ما فيها انها تتم بمعارضة شديدة من أصحاب الحلول الجاهزة السهلة وبغير تشجيع من أحد .. فالدولة لا تشجع الا ما يعود على جماهير الشعب بالاثر السريع المنتج والشعب مشغول بالنجوم والابطال والانتصارات فما اكثر ما قضى من وقت وهو لا يذوق سوى الهزائم وقد آن له أن يحيا الانتصارات ويخلقها حتى ان لم توجد . ولهذا فعلى قدر ما اصبحت الرياضة وأبطالها نجوما خوارق يحظون بالدعاية الشعبية والرسمية ، على قدر ما اصبح البناء والبناة لقبا ومفخرة ونياشين وميداليات ، على قدر ما احتلت كل فئة من فئات المجتمع التى تكرس نفسها للتصنيع والتشييد والانتصارات مكانها فى سماء حياتنا ، على قدر هذا كله فان مكانة هؤلاء الذين يبنون حياتنا الفكرية والفنية تأخذ اقل الاوضاع . صحيح أن عدد الكتب والمسرحيات والمؤلفات والفرق التمثيلية ومنابر النشر قد ارتفعت وربما تضاعفت عشرات المرات ،ولكنى هنا لا اتحدث عن (النهضة) فى التطبيق والتنفيذولكنى اتحدث عن النهضة الحقيقية فى التأليف والخلق والتفكير وعن خالقى هذه النهضة . اتحدث عن هذه القلة القليلة التى لا تحظى بتكريم أحد والتى اوشك مجتمعنا ان يهملها اهمالا تاما ، هذه القلة التى كانت جديرة بأن تزين بانتاجها واحتفالنا بانتاجها صدر حياتنا وتصبح هى النموذج والمحتذى فان مقياس حضارة أى أمة أو فترة من فترات التاريخ يستدل عليه بمقدار ما كانت تحظى به هذه القلة من رعاية واهتمام ، أنه مقياس التحضر الحقيقى والنهضة الحقيقية وليس هناك أى مقياس آخر

اصرخ وعش ولا تمت

شعور غريب كان يراودنى وأنا واقف مثـــل أبطال الروايات خلف باب مغلق أروح وأجىء وقلق أجوف رنان لم أحسه من قبل يتزايد ويغمرنى. كنت أعرف بالضبط ما يدور فى الداخل . منذ لحظات وجيزة وانا أخوض تجربة الابوة الاولى لطفل لم أره بعد وكل معلوماتى عنه كلمتان اثنتان قالتهما ممرضة مسرعة ملهوفة : مبروك .. ولد

ولكنى عرفت فى الحال انه ابن مع ايقاف التنفيذ .. فقد انتظرت ان إسمع صراخه ولكن صرخة واحدة لم تغادر باب الحجرة المغلقة ، ورغم كل المطمئنات ،وكمادات الابتسامات المرتسمة على وجه الداخل والخارج لتهدىء من روعى ، وتقنعنى أن كل شىء على ما يرام ، فقد كنت عالما تماما ان الباب يفصلنى عن حدث بالغ الخطورة ، أخطر حدث .. فالجنين بلا شك يعانى من الاختناق ، ولا يتنفس ، ومصيره دق حتى أصبح معلقا بخيط أوهى من الدقائق الفاصلة بين الرابعة والرابعة وسبع دقائق ، اما أن يجتازها الى حياة عريضة تعد بعشرات السنين ، واما عودة سريعة الى الظلام الذى خرج منه .. الدقائق القليلة

التي يتحول فيها الجنين من سمكة تعوم في ماء الى انسان يتنفس هواء ، التي تفصل بين رحلة طويلة منذ ان كان ذرة رمل حية الى أن أصبح كاملا له أمعاء ومخ واعضاء ؛ والرحلة الاطول التي تنتظره والتي سيتعلم فيها كيف يتكلم وسيجرب ويحب وينتصر وينهزم ويشيب شعره ويتزوج ويقف هو الاخر ينتظر مثلي خلف باب مغلق .. الدقائق قليلة جدا ومصيره فيها معلق والارادة العليا التي سوف تحدده قد تلبست الان ايدي الطبيب .. والطبيب لم أعرفه من قبل وأن كنت قد سمعت عن براعته وحذقه، ولكن الموقف أصعب موقف ، والبراعة لهاحدود ، والمطلوب براعة تفوق الحدود ، براعة من براعة الله تخلق وليدا حيا من الجنين الازرق الذي لا يتنفس ، ورغم وقفتي بالخارج فأكاد اشارك الطبيب شعوره ، شعور الانسان بكل محدوديته حين تمنحه الظروف قدرة الله ليصبح باذنه يستطيع أن يحيي ويصبح خوفه الاكبر ان يميت ، حين يصبح انسانا بمسئولية اله وعواطف بشر ، ودقيقة مرت ، ودقيقتان ، وأعصابي تحمر وتتوهج ثم تصيبها القشعريرة فتتجمد ، لتعود فجأة تتوهج مع كل فتحة باب ، وكل نأمة صوت وكل انبعاثة هرج أو مرج ... نفسي تحدثني أن أدخل لأرى ، لعل الرؤية تذهب القلق ، ولكن مانعا أكبر يمنعني ، فأنا عالم تماما بنوع العمل الدقيق الحاسم الساحر الذي يقوم به الدكتور علي في الداخل ، كيف اقطع عليه خلوته ، وهو يعيد الانفاس الى جسد لا يتنفس ، وهو يعيد لون الحياة الى أظافر اختنقت واسودت ، كيف أقطع خلوته وهو يقوم بدوره الالهي .. ان مجرد تبادل التحية ، مجرد شعوره بدخول غريب ، مجرد نظرة تصوب أو أصبع ترتجف قد يفلت لها الزمام .. عقارب الساعة تدور ، عقرب الدقائق كأنه أصبح

عقرب ثوان ، وعقرب الثواني كأنه انقلب الى عقرب ، كل اختلاجة منه تلدغ ، وبعدى عن المعـــركة الدائرة فى جسد الابن الذي لم أره يجعل اعصابى تزداد هوسا فى تذبذبها بين التجمد والتوهج . لا يزال الصمت هو الاقوى وهو المسيطر ، والوقت المـولى هو الاسرع ، والاسفكسيا الزرقاء لابد أنها تتحول الآن الى اسفكسيا بيضاء لا رجوع فيها ولا منها .. لو لم تعد الحياة للجنين فمن المحتم انها ستفارق أمه ايضا ، اية أحلام بنتها ، وأي فرحة حملتهـا وضمتها تسعة أشهر والملابس التى فصلتها ، وقمصـانه الصغيرة المفتوحة من الخلف ذات الاكمام التى فى حجـم الاصبع .. خمس دقائق كاملة مرت ، دار خلالها العقرب خمس دورات كاملة مرت فوق الامل فطحنته وسـاوته باليأس والارض واللا أمل .. رفة حركة مفاجئة حدثت فى الداخل أعقبها أمر باتر سريع من الطبيب ... أتراها رفة النجاح التى تسبق الهمود الدائم .. لابد أن الموقف يتدهور والازمة تتيبس فالاقدام كثرت حركتها ومفتاح اسطوانة الاكسجين وقع على البلاط فارعد بناء المستشفى كله .. ثم الصمت الهائل مرة أخرى .. الصمت الكامل .. لابد ان الاحياء بالداخل كفوا عن التنفس هم الآخرون ، أنا لم أعد أسمع ... سبع دقائق مرت .. هاهى الثامنة القاضية فى الطريق .. لابد انى عدت أسمع .. لابد انهـا كحة أو صرخة أو حشرجة أنفاس أو ضجة غريبة المصدر . وكل ما أريده ضجة غريبة المصدر ... صرخة .. لهثة .. صوت أول هواء يدخل الى الصدر الذى لم يذق للهـواء طعما .. أجل صرخة .. انها صرخة .. صرخات متصلة مبللة بلعاب الاختناق الوشك ، اتكون قادمة من مكـان آخر ، أيكون طفلا آخر ، لا ... لا .. بل هو .. لابد انه هو .. أقســم انه هو .. لا .. لا .. لا أريدها ضعيفة

هكذا .. اقوى .. مرة اخرى أقوى .. بكل قوتك أصرخ ياولد .. اصرخ يابنى .. تنفس يا أحمق .. بعمق .. تنفس .. افتح صدرك كله وافتح صدرى معك وتنفس .. انى معك فتنفس .. انفاسى معلقة بأنفاسك فتنفس .. واصرخ واملأ الدنيا صراخا .. وتنفس .. بربك لا تكفى

ايتها الحياة الصغيرة الجديدة عن الحياة .. لا تتحولى أبدا الى كتلة .. بكل كيانك انبضى .. وبكل نزقك أرفسى .. ضمى قبضتيك بشدة وتأزمى وقوليها عالية ، أعلنيهـــا للدنيا ، لكل الاحياء : انا القادم الجديد .. انا أخــوكم الجديد .. قوليها بصرخة .. قوليها بواء .. واء .. واء!

***

وفقط حين امتد الصراخ حتى اصبح يقينا لا شك فيه، وحين تبينت صوته وقد انتظم واشتد وأصبح يمخر به عباب الدنيا نافضا عن نفسه الزرقة والاسفكسيا والعدم .. حينئـــذ فقط ، فتحت الباب ، ورأيتـــه .. رجـــلاه

الصغيرتان مضمومتان الى أعلى فى عناد حبيب .. وصدره الذى فى حجم القبضة منفوخ كصدر الديك ويداه الدقيقتان تحتضنان الهواء فى استماتة غريق فى بحر من الهواء ..

ورايت منقذه الدكتور ، وقد انتهى من دوره المعجز ، حبات العرق نابتة بغزارة على جبهته ، وأنفاسه هو الآخر تلهث ، وملامحه تشع منها فرحة حياة أحيت لتوها حياة

وما كدت أمد يدى لأصافحه حتى أحسست بشيء يشرخ قلبى ، اذ يبدو ان التمرجية لم تتمالك نفسها ،

واطلقت زغرودة ، ولاول مرة احس بالزغرودة ، وكأنها صفارة الحياة تنطلق من القلب لتهز القلب ، وتؤذن ، وتبشر بالنجاة .. وبالحمد على السلامة

حين ضاع الولد

هي لمحة هزار من القدر أو اشارة من القوى المجهولة تقول : نحن هنا ، ونحن على الدوام بالمرصاد ، ولكنها على اية حال تجربة ، واذا كان بعض الناس يستبيحون لانفسهم أن ينفقوا الاموال والصفحات والمجهودات في حديث معاد عن الكورة والشواكيش والعناتيل والبناطيل؛ واذا كان يحلو لبعض الناس أن يتضاربوا بل ويقتل بعضهم بعضا في حماس أخرق من أجل هذا اللاعب أو ذاك ، فمن حقي هنا ان اروى تجربة قد تبدو ذاتية ولكن على الاقل فيها انسانية ، اذ ، فجأة ، تفقدت ابني الصغير على البلاج فلم أجده .. كنت جالسا أقرأ الجرائد وألاحظه وهو يلعب ، وفجأة لم اره ، ودرت بعيني دورة سريعة فلم أعثر له على أثر ، لجزء من الثانية دق في راسي الاحتمال :

أيكون قد فقد ؟ ولكنني استعنت بكل شيء كي تصرخ أعماقي : غير معقول : لا يمكن أن يكون قد فقد ، لابد انه عند (الدش) ، أو عند بائع (الجيلاتي) : أو في مكان ما حول الشمسية ، كنت أجلس متعبا ، ملولا ، أتطلع في بله نفسي الى كل ما حولي غير مؤمن بالصيف أو بالراحة وبكل هؤلاء المتزاحمين في جنون متحضر حول رقعة صغيرة

من البحر ، يفسدون الجو والبحر والطبيعة ليتحدثوا عن (حلاوة) البحر والجو والطبيعـــــة ، وكل ما يعزينى أن الاولاد سعداء .وانهم يختزنون فى ذاكرتهم الدقيقة صورا لسعادة موهومة ستظل عالقة بها أبد الدهر ، ربما ذكرياتنا نحن أيضا عن طفولتنا ليست سوى خدعة ! . .

انتفضت واقفا فجأة ومن كل اليأس والحيرة والضياع تبدى لي فجأة هدف واحد محدد : أن أعثر على ابنى وأن أراه مرة أخرى . . أسرعت الى كل ناحيـــة من النواحى الاربع ، الى العائلات المتجمعة أتطلع ، الى المستحمين فى البحر اللاعبين الكرة خلف الشماسى ، الاشياء والكائنـــات الكبيرة كنت أنبذها ، كل صغير ثابت أو متحرك كنت أنظر اليه ، وأصبح على مهمتان أن أبحث عن بهاء الصغير .وان أطمئن زوجتى ، وكل دقيقة تمضى دون العثور عليه تقربنا بسرعة من فاجعة انه حتما وبكل تأكيد قد فقد . . خلال الدقائق القليلة القادمة اما أن نعثر عليه واما أن يكون قد ضاع • والوقت ثابت جبان يهرب، ويمضى دافعا ايانا لنواجه الحقيقة • انه شعور لا يمكن أن نحسه ولا يمكن وصفه ، شعـــور الأب أو الأم حين ينقطع فجــــأة ذلك (الكابل) الاحساسى الذى يربطهما بابنهما ، وهو بالتأكيد عند الأم أقوى الف مرة ، اننا عند الولادة نقطع الحبـــل السرى المادى الواصل بين الأم ووليدها ولكن يبقى مع هذا حبل لا يمكن قطعه ، حبل سرى وجدانى حقيقى بل أكاد اقول مادى يصل بين الأم وولدها . الحبل انقطع . لا يوجد على الطرف الآخر كائن حى لذيذ صغير اسمه الولد

أربع أو خمس مرات ذرعنا الشاطىء طولا وعرضا ، كل شىء كما هو عليه ، البحر هادىء ، الامواج تتهادى وكأن لم يحدث شىء ، المصيفـون يثرثرون تحت الشمـــــاسى

ويتمطون ، الرمل ممتد ، المضارب تضرب الكور ، صراخ المرح ينطلق شارخا الجو بين الحين والحين .. كل شيء كما هو الا الفجيعة الداخلية التى لا يحسها أحد سواك ، أنت وحدك الذى يمزقك التناقض الصارخ بين خارجك حين تراه عاديا طبيعيا وداخلك وأنت تحسه ألما له لسع النار .

عشر دقائق مضت ولم يظهر الولد . الحقيقة العارية القاسية . فقد الولد . مستحيل لا يمكن أن يكون قد ضاع . لابد انه فى مكان ما هنا أو هناك ، لا يمكن أن يكون قد ضاع . فلتستمت باحثا منقبا ولكن أى بحث . انك فى غابة أشجارها ألوف السيقان وأوراقها مايوهات وشماسى

انه بحر آدمى كبير ابتلع الولد كما تبتلع المياه اى كائن وهدأ سطحه والتأم وكأنه لم يبتلع شيئا . الامل الاخير .. البوليس .. لابد أنه يعرف الطريق للحصول على الاطفال المفقودين . نقطة الشاطيء غير بعيدة . أسرعت اليها ، اربعة عساكر جالسون يدخنون فوق اريكة ،وواحد

ينظر من الشباك ، شاويش يجلس على مكتب محرجا وكأنها اول مرة يجلس فيها اليه . الولد ضاع ، ولا يهمك ولا تخف .. سألنى الشاويش . هل ضاع اليوم أم امس . امجنون ذلك الرجل ، وما الذى يجعلنى انتظر اذا كان قد ضاع بالامس للتبليغ عنه اليوم . ضاع منذ نصف ساعة . منذ نصف ساعة فقط ، هذه بسيطة جدا . من المحتمل

أن يظهر خلال الساعات القليلة القادمة ، ولا يهمك . كل يوم يضيع طفل أو طفلان ويظهرون ، أحدهم ظهر بعد يوم كامل ، لابد أن الولد مع عائلة مصيفة عثرت عليه وستنتظر بعض الوقت ثم تحضره الى النقطة . اسمك . عنوانك . بطاقتك الشخصية . لم أفه بحرف واحد . غادرت النقطة يائسا تماما ، ما فائدة البوليس اذن اذا كان الناس

هم الذين يعثرون على الادميين والاشياء المفقودة ، اذا كان الناس هم البوليس الحقيقي . عدت الى الشاطىء مرة اخرى . لاحظت أن الوقت قد مضى والساعة قد بلغت الثانية والنصف ، وأصحاب الشماسي ينصرفون ، والشاطىء يبدأ يخلو . هنا الكارثة ، فأملى كله هو فى وجود الناس على الشاطىء فأنا أعرف ان الولد بينهم ووجودهم أمل فى وجوده . يارب دع الشمس لا تتحرك . الصراع قوى رهيب شديد ، بين تصورى لاحتمال أن يكون قد فقد نهائيا والامل الضعيف يساورنى ضعفه للعثور عليه ، موجات احساسية تهب وتلهب خيالى بصوره وهو يلعب وهو يجن جنون الاطفال وهو يغمض عينا ويفتح أخرى اذا ما واجه الشمس .. يارب علق الشمس . الميكروفون لابد من عربة بميكروفون . يا اولاد الحلال ولد تايه . ولد لو عرفتم كيف تحملنا فى سبيل أن يعيش. كم مرض وعالجناه كم كاد أن يهلك وانقذناه ، ولد مهما رأيتم فيه فرأينا فيه أنه ألذ أولاد العالم لانه ابننا . ولكن الشمس تتحرك الى الغرب مهددة بالسقوط فى البحر ، والناس ينصرفون ولم يبق سوى بؤر حياة على الشاطىء، والبحر يبدو مهجوراً تعيساً .. وكأنما الحياة تختفى نهائيا من فوق سطح الارض ، يقتلها يأس كبير أسود يزحف من كل اتجاه ، من الماء والسماء والشرق والغرب، مرة أخرى الى النقطة ، لا ، لم يحضر أحد ، مرت ساعتان ولم يحضر أحد ، لابد أنه غرق فى الماء ، فى الماء أو فى الناس أو فى المدينة ، انها كلها أصبحت مجاهل مخيفة ، فى ثانية ممكن أن تبتلع طفلك أو تبتلعك فلا يظهر له أو لك أثر ، بعض شبان البلاج يسخرون من رواحنا ومجيئنا على الشاطىء كمن فقدوا عقولهم .. لهم حق ، انهم لم يجربوا بعد هذا الطعم ، طعم أن تفقد أحب وأصغر المخلوقات

اليك .. ترى ماذا يفعل الآن وهو تائه ، وهو يحس انه ضائع بلا أب أو أم أو أخ ، وهو يبكي بكاء العاجز فسنه ثلاث سنوات ونصف ، ليسترد أباه وأمه وحياته

ساعة الم أبشع اخرى قضيناها ، او قضيتها وحدى، فالأم كانت قد تركتنى ومضت ، مدفوعة بعوامل فوق حدود العالم والعقل ، تبحث فى منطقة كان من المستحيل ان يوجد فيها لبعدها الشديد عن المنطقة التى فقد فيها ، وكنت مشغولا أفتش عن عربة وميكروفون وكل تلك الاجراءات الشكلية التى لا تجدى ، وثبت ان الفريزة هى الاقوى والاحكم ، فبعد ساعة ظهرت زوجتى وهى تحمل الولد وقد عثرت عليه مع بعض أولاد الحلال فى تلك المنطقة البعيدة

الان فقط أحس بمدى الفجيعة التى كانت ترقد وراء عم ابراهيم ، وهو ينادى ونحن صغار : ياولاد الحلال ، ولد ضايع ولابس جلابية بيضا ، ذلك الذى كنا نسير وراءه نردد كلماته أطفالا ونحن فى منتهى السعادة ، وعلى وجوهنا نفس الابتسامة السعيدة التى كانت مرتسمة على وجه الولد ، فهو لم يتصور ابدا انه ضاع ولم يحس مطلقا بأية فجيعة

فهرس

صفحة



الثمن : ٣٠٠ ق. ل.